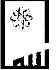
خوذة... ونورس وحيد

قصص

سمير الفيل

خوذة ونورس وحيد
الكاتب : سمير الفيل
الناشر : سما للنشر والتوزيع
الطبعة الأولى : ٢٠٠١ - القاهرة.
لوحةالغلاف : الفنان عبد المنعم مطاوع
رقم الإيداع : ٥٢٩٥/ ٢٠٠١
الترقيم الدولى : 977-5843-22-7



٢٩ شارع الرشيدى-متفرع من القصر العينى - القاهرة
تليفون + فاكس : ٣٦٥٩٢٩٣
Email : aliafifi@internetegypt.com

إهداء

إلي أيام الخدمة العسكرية...
وزملاء السلاح..
فقد كنا نضحك من القلب كثيرا...
رغم التعليمات الصارمة بأن نكون جادين
كانت خشونة محببة
والعيون لا تبصر إلا فضاءات مبهجة؛
إلي هؤلاء الصحاب حيثما تفرقوا
في بقاع الوطن
بنفس الأرواح الظامئة للعدل.

سمير الفيل

تنويعات عسكرية

قصص هذا القسم كتبت في الفترة من سنة
١٩٧٤ إلى سنة ١٩٨٥

إجراءات

كانت الساعة فى يده معطلة دوماً، لكنه ينظر إليها دون كلل، والدشم من خلفه تقبع فى صمت. يتقافز على المدق الجيرى ليلمح عربة الماء قادمة لتملأ الجراكن. وحين يتأكد من كونها فى الطريق يصنع جلبة غير ممكنة، ويصيح صيحات فرحة: «هنستحمى يا ولاد».

ثم يقابلها فى المنحدر حين تضطر لإبطاء سرعتها مواصلا عرجه، ويلقى تحية الصباح على السائق، والوقت ظهيرة فى ود بالغ: «صباح الخير يا حضرة الصول، معاك على غراب المية» ودون أن ينتظر إجابة يصعد فى خفة قط، ثم لا يلبث أن يمدد ساقه المصابة فى آخر حرب على إمتداد الجراكن البيضاء التى تتكوم على أرضية العربة: « بالهداوة يا ولاد».

تتقد فى داخله رغبة عارمة فى أن يناوش السائق. حين تتحرك السيارة يحدث بيده وفمه صوت فرقعة هائلة. وحين يوقف السائق العربة متخوفا وفاحصا الإطارات فى قلق يواجهه بعينيه الوادعة، بينما ضحكته الطفولية تصهل: «عليك واحد».

وحين يومض الحر يصبح وحده القادر على أن يفك أزرار سترته، ويقف بالفانلة الحمالات. أساله متأملا الزغب الخفيف الأصفر على شفته العليا: «هتطلع إمتى؟».

فيخطف من جيبى قلماً ويكتب فى الهواء وصوته يعلو: «اجراءات الرفد طويلة».

وفى أول كل شهر يستخرج أورنيك عيادة ليذهب إلى «أبى صوير» حيث تحوله السرية الطبية إلى مستشفى القصاصين فيجدد الإعفاء من الخدمات الليلية وطوابير الاصطفاف. ويُسمح له بارتداء حذاء خفيف.

سألت: «معاك معافاة. بتحضر طوابير التدريب ليه؟».

ينظر إلىّ ويهز كتفيه المهدلين: « الركنة بطالة».

وأصطدم بشهيته المفتوحة دائما للنكتة، وهويسخن لنا اكواب الشاى الميرى: «فيها كافور يا ولاد».

أساله مصطلنعا الغفلة :«يعنى إيه؟»

يضرب كفا بكف وترتعش شفتاه: «إسأل المتجوزين يا دَغف».

وأنا الدَغف أضربه على كتفه وحين يصفق الصول عبد الرحمن جامعا إيانا، نندفع من الدشم النصف

معتمة إلى ساحة التدريب بعد أن نبلل وجوهنا ببعض ماء الزمزميات. فيسخرمنا : «يعنى رايحين حرب اكتوبر يا فالحين!»

يلحق بنا دون أن يخفى عرجه. يختار أن يكون مصوبا فى كل مرة، ويقنع حكمدارالطاقم بذلك، وينجح فى ضبط ماسورة المدفع على زاوية التنشين. نصفق لطاقمه فيخرج لنا لسانه "أصلكوا عساكر هفق مستجدين!»

يضمر للحزن كل عداء. لكن ما باله اليوم صموتا موجوع القلب؟

بعد أن انتهينا من طابور الرياضة لمحته فى ظلمة الملجأ ينوح بصوت مكتوم أو هكذا خيل إلىَ، لأننى عندما وقفت أمامه أهزه من شروده، وأحدق فى وجهه لم تكن ثمة دموع.

كان ينتفض ويده تقبض على بعض أوراق مطوية. سألته: «مالك؟ فيه إيه؟» كأنه ينوء بثقل اعتراف يخنق كلماته: «إجراءات الرفد تمت». الشظية التى سكنت ساقه فى الحرب أخرجته من الخدمة مبكرا. سألته: «أنت حزين؟» نظر إلى الدشم والخوذات المعلقة وشباك التمويه وسكت!

علم الزملاء بالأمر، فاعدوا له فى المساء حفلاً لتوديعه. وتحت وميض النجوم المنداة بسحر آفل كانت الحلقة مرصعة بأجسادنا المتفجرة حماساً للرقص، رجال الصعيد وبحرى، وأولاد المدن.

طوانا الخجل جميعا ورغبتنا تشتعل بها اكفنا التى تصفق بكل الغواية. هو الذى فعلها وحده. تمايل فى نشوة وبكى، ثم واصل الرقص. حتى أفراد الخدمة الليلية كانت أعينهم تتابعنا فى بهجة مضمرة.حين جاء الضابط ينهرنا وقف فى وجهه متحديا وضاحكا، «إيه؟ جلسة إجراءات؟»

جبهان على مستكة

حارس الفنطاس استلقى فى الظل المعشوشب واضعا طاقية الرأس على وجهه. رفض أن يملأ لنا الجراكن إلا بعد أن تبدأ نوبتجيته فى السادسة. تململ وحرك الطاقية عن وجهه فبرز شاربه المقصوص، ونحن نزفر فى غيظ دون أن نتفوه بكلمة واحدة.

الماء فى الصحراء المقطوعة أغلى من كل شئ، فضلنا الصمت، وجلسنا على الجانب الآخر من الفنطاس حيث الشمس تصب وهجها فى رفق لا تعرفه الواحدة أو الثانية. الشمس فى تلك الساعة مثخنة بهزيمة لم نرها لكننا نشعر بها. لقد فقدت سطوتها وهى تلم خيوطها فى خجل وتنسحب بكل الحذر الواجب.

قام ناظرا فى ساعته، رمقنا بفضول وبقايا شراسة ونوم آفل : «لسه. استنوا. عايزكم صفين قدامى.»

صاح أحدنا وقد فاض به الكيل: «شهل. أنا من الرئاسة!» رمقه فى ريبة: «بأمارة أيه يا حدق؟»

ضرب صاحبنا الأرض بقدميه، فانغرست البيادة فى الرمل: «بأمارة طابور الذنب اللى خدته امبارح!»

طوح الأومباشى الجراكن فى غل، ورفس الفنطاس فاصدر صوتا مكتوما، وعلى المدق تحركت عربة جيب متمهلة، نظر ناحيتها وقالها بمرارة: «بالدور برضه!»

كنا ننظر بنفاذ صبر إلى ساعاتنا وعندما أعتلى العقرب الكبير العلامة الوسطى أعلى الميناء، تدافعنا فى طابور متلاحم، وبيده أدار الغطاء القلاوظ الضخم، وانحنى بجذعه يضع عامود التصويب القديم يقيس به عمق الماء. ارتدت نظرته نحونا وكأنه يتشفى قال يصدر لنا يأسه: «يادوب... كل فصيلة جركن، جركن واحد بالعدد!» قال فرد من الرئاسة: «مطلوب أربعة!»

تظاهر أنه لم يسمعه وبدأ عمله بهمة ونشاط: «يالله يا دفعة! مد إيدك عليك نور.»

وعربة الجيب جاءت تتهادى بالعلامة الحمراء، على مسافة قريبة أوقف السائق محركها وأنزل الجراكن: «دول تسعة. مش ممكن. لو حتى قائد الفرقة مستحيل!»

هكذا كان يصرخ حارس الفنطاس، وشاربه المقصوص يرتجف: «أروح فى الحربى يعنى!»

تمهل السائق، وعاد إلى العربة، ملأ فنجان القهوة البنور الصغير بسائل محروق اللون، تصاعدت الأبخرة،

تقدم منه والعرق يراه متصببا: «بل ريقك!» نظر الينا وثبت عينيه فى أعيننا دون أن ينطق.

ارتشف فى تلذذ، وشاربه يمس حافة الكوب: «قهوة يا دفعة؟» اندفعت الدماء فى شرايينه، والسائق يهز رأسه: «بحبهان وحياتك!». صاح عسكرى لئيم فى آخر الصف: «حبهان على مستكة.». ضحكنا ضحكا صاخبا فتغضن وجه حارس الفنطاس، وتوقفت يده بالفنجان، جاءه الصوت من آخر الصف: «بالهنا والعافية. ولا تاخد فى بالك.»

هز كتفيه: «اللى عايز اكتر من جركن يملى. العربية جاية بالليل.»

واندفعنا جميعا نملأ الجراكن على حس عربة الجيب، وفنجان القهوة بالحبهان!

صورته

ما الذى جعلنى بغير إرادة منى أفز من نومى قبل أن تدق السادسة صباحا؟ أتحسس ذقنى النابتة كشوك القنفذ. أرفع عن بدنى الغطاء. واتجه من فورى إلى الحمام، أوارب ضلفتى الشباك، وأضغط زر النور مغمضا عينى على النور الباهر. أمد يدى شبه منوم باحثا عن ماكينة الحلاقة على الرف الزجاجى ثم بعد دقائق أخرج مشدود القامة لأبصر أجسادهم الصغيرة ملتفة بملاءات رقيقة تعتذر للشتاء عن تأخره؟

أصفق الباب خلفى، وأتحسس عظام الترقوة، وثقل البيادة التى خلفتها منذ أزمان. هل هو نداء خفى أم توق عارم أن أذهب إليه وأحدثه مثلما كنت أفعل حينها؟ لماذا هذا التعسف وروحى مثقلة بنظرته المحدّده ونداء متخاذل يشدنى إلى قاع الجب؟ حين انشطر الصمت بقذيفةعمياء، واجهت الموت والعجز، وغلت الرمال وغطى وهجها وجهى. لم أر منه سوى أشلاء منثورة تصرخ مطحونة فى كمد وغيظ، والجنازير تدور، والتروس العملاقة تصخب.

يدى تهتز بفنجان القهوة البنى، وشمس الصحراء تدبغ جلدى. قالت لى نظرته الوجلة: لاتنس أن تكفننى؟

لم أفعل لأن الزرقة بانت آفاقها المحترقة تضغط على صدورنا بنيران كثيفة. همس الشاويش فتحى: ننقل الموتى ازاى، والرمل الطاهر يتاويهم؟

قماش الأفرول الكاكى تمزق تحت الإبط. اندلع ألم هائل فى الحلق ومرارة. قلت ولم يسمعنى أحد : نكفنهم. ده لحمنا الغالى.

ارتجفت شفاههم اليابسة، قال الشيخ يحيى: الرمل غسيل طاهر. والرمل كفن.

التف شريط أسود حول الصورة فى إطارها الخشبى. كانت نظرته حزينة، وضعت يدها فى حجرها وهزت الرأس : ربنا يغفر له. ولم تمسح الأم دمعة تسللت للوجه الشاحب الهضيم.

هى - المرأة الشابة - التى تقدمت منى. جلست فى مواجهتى تماماً: محارب حس بالم؟ ندهنى قبل ما يودع ولا نده العيال؟

شفتان يابستان تتحركان باللوعة والأسئلة. اختلط لحمه فى النقطة ١٤٥ بالأرض الرملية وشجيرات الصبار القزمية، وخنافس سوداء تجرى مجنونة

بالضجيج، وأربطة الميدان، وجثث الدبابات الخرساء تفوح منها رائحة تزكم الأنوف .

على عتبة البيت رفعتَ وجهه الصغير أتأمله. من فرط تشابهه من أبيه أنكرته؛ ضحك نفس الضحكة لكنها كانت خالية من خشونة ألفتها، سألنى، معاك حاجة حلوة؟

ندت عن صدرى تنهيدة. أخذته من يده وهبطت السلالم. عند البقال كانت صورته أيام الشباب مع أولاد الحتة بنفس ابتسامته الأخاذة خلف الزجاج مثبتة. تأملتها، قلت لصاحب الكشك، إدينى شيكولاتة بسرعة.

أمتدت يدى بالنقود، نسيت فى اضطرابى أن آخذ الباقى. قلت فى نفسى سوف أظل حريصا على زيارته.

اليوم كم من الأعوام مرت ولم أره؟ جاء الجرسون وتناول حسابه سألنى، تطلب حاجة تانية؟

نظرت من حولى كان يوم عطلة والراديو يذيع أغانى حماسية، وحناجر تصرخ فتنهمر كلمات زنة ألف رطل. تتناثر شظايا فى عقلى، تطحن مشاعرى بضراوة لا قبل لى بها.

هبت ريح باردة ودقت ساعة الميدان السابعة، قلت، لعله انتهى الآن من الجامعة؛

ناوشتنى الذكرى. ركبت المترو على غير إرادة منى. وقهوة الصباح البنية حركت أحزانى القديمة.

هبطت فى الميدان، وتهيأت لرؤية البيت. تفحصت المكان فلم أجد له أثرا.

سألت وعلمت أن صاحب البيت استخرج رخصة بالهدد، وأن الأسرة التى كانت تسكن بالإيجار نقلت عفشها منذ أعوام ورحلت إلى جهة غير معلومة.

فى المنحنى واجهنى كشك البقالة. كانت الصورة مازالت مثبتة وقد أكلت الشمس نضارة الوجوه ومحت الملامح. اشتريت قطعة الشيكولاتة وسرت على غير هدى أبحث فى الطرقات...

دُفعة

قالت زوجتى ، هو يوم للراحة. لا تخرج اليوم وأجلس معنا. شاهد العرض العسكرى. قلت وروح اليوم تستولى على كيانى كله، أشعر بحاجة إلى هواء نظيف.

أحكمت الغطاء حول جسدها، ودفست رأسها تحت الوسادة ولم ترد.

كنت قد انتهيت من ارتداء ملابسى. بنطلون الصوف الخفيف، وقميصى الكاروهات الذى دفعت جمركه قسرا فى بور سعيد، وبلوفرى الأخضر الذى أهداه لى أخى ماهر من السعودية. كل شئ ينبئ عن يوم سعيد، اخلو فيه إلى نفسى، واتصفح جريدتى المفضلة فى ركن المقهى، حيث لا لهاث وراء أتوبيس، ولا تحذير من رئيسى فى الشركة بالتزام الدقة فى مراجعة الميزانية.

رجعت بمقعدى إلى الخلف، ركنت راسى على الحائط، أغمضت عيناى، وتوسلت للمقادير ان تشملنى بالراحة، ولا تعكر صفوى.

خبط بعلبة الورنيش الفارغة أرضية المقهى. اقترب منى، تلمع يا بيه؟

نظرت إلى حذائى كانت تكسوه غبرة خفيفة لا تُرى.
قلت لنفسى: من زمن العزوبية لم أفعلها. ناهد هى التى تلمع حذائى منذ زواجنا. لماذا لا أغير العادة؟

خلعت الفردتين، وعلى مقربة منى جلس بصندوق أصباغه، يعمل بهمة، بينما صوته الأجش يستولى على المكان: «خلى السلاح صاحى»!

لاحظت لأول مرة عكازه الخشبى المستند إلى منضدة مواجهة. كان بساق واحدة، ومنظره ليس بغريب. نفس الوجه التقيت به من قبل. ضايقنى الغناء. زجرته: لاداعى للدوشة!

ترى أين رأيته؟ نظر لى فى عتاب صموت، وواصل عمله دون أن يرفع وجهه ناحيتى. فردت الجريدة أتابع برامج اليوم المشحون بالأغانى والاستعراضات. مد يده بالحذاء اللامع. طويت الجريدة، وما برحت أفكر: أين رأيته؟ ناولته الثمن. كنت أشعر بتوتر خفيف لا أدرك له سببا، وحين أسند العكاز تحت إبطه، وسار بمشية عرجاء ينخلع لها القلب راجعت نفسى: لماذا زجرته؟

قبل أن يبتعد قفزت نحوه تاركا مقعدى: لم أقصد أن أضايقك.

ابتسم لى ابتسامة وثقت اننى اعرفها جيدا، ولا يهمك يا بيه.

أمسكت بيده، والضوء الهادئ يغمر المكان، إجلس، اشرب قهوة.

هز رأسه معتذرا، الرزق يحب الخفية.

مددت يدى بسيجارة، وكانت الأخيرة، ابتسم، منى لك يا أصيل.

صكت العبارة سمعى هتفت وقد أخذتنى المفاجأة، إنه أنت! لا تتهرب منى.

وفى لمح البصر أبصرته منكبا على مدفع ال م. د يَصلحه، ومن حوله سحابة الغبار، ووجوهنا القلقة التى لم تذق النوم أياما فى اكتوبر. وضحكته رغم كل شئ، مدفع ابن كلب ثقيل. والدانة التى أطاحت بساقه. كان قد مضى على الحرب أربعة أيام حين اخلته سيارة الجيب، وعادت به للمؤخرة. صحت فيه، لماذا تنكرنى؟

تفحصنى مليا وهو يتأهب للرحيل ،تقصد ايه؟ قلت، ألست أنت هو؟ ضحك وهو يبتعد، خليها على الله. زمن ابن كلب ثقيل. ثم راح يدب بعكازه همست وجسده الضئيل يتوارى خلف السيارات والأجساد العابرة، مع السلامة يا دُفعة!

عزومة

اللعين فتحى فعلها، غافل الصول فرغلى وحفن حفنتين من شيكارة العدس بكلتا يديه، وألقى بهما فى عبه، كما علق فى قايش الوسط كيس الأرز. وحمل بطانيات الملجأ لينفضها خافيا اضطرابه فى سعال مبحوح، متمتما فى تلعثم: يا حضرة الصول. البطانيات مليانة رمل. انفضها بره؟

زجره الصول بصوته الخشن. إعملك همة، وبطل دوشة.

كنا فى طابور اصطفاف السرية واخذ التمام حين رأيناه يعبر البوابة الحديدية، ويغمز لنا بعينه، متمهلا فى سيره ومخطوف اللون.

مر اسبوعان منذ تلقينا إشارة من مركز القيادة بأن سيارات الحملة انتقلت للصيانة. وأن التعيين الجاف سيصرف لنا بانتظام من مخزن الكتيبة.

حين علم الصول هرش فى رأسه متأزما: امور هَبل؛ على مقربة من منطقة المضايق كانت نقطة تمركزنا، بعيدا عن العمران والحياة. ما فائدة الضجر والتململ

وكل شئ يسير بعد الحرب ممطوطا كانك تشاهد فيلما بالحركة البطيئة؛ روضنا أنفسنا على تقبل المكاره. فلم يصبح الأمر سوى المزيد من الحرمان تقبلناه منذ انخرطنا فى الجندية.

لم نكن ندرك أن التعيين الجاف قادر على ان يبلغ بنا حافة الضيق. طلب الأومباشى عمر مكتب قائد السرية، وخاطب الملازم منشبا نظراته فى الرمال، ريقنا نشف؛

سأله متبرما، علشان الأكل طلبت مكتب؟ آمال صبرت فى الحرب ازاى؟ أنا زيكم باكل من العلب الصفيح.

صرفه، وعاد لنا مطاطئ الرأس، واقتنعت السرية ان الحرمان يلف أفراد الكتيبة كلهم. العسكرى فتحى وحده لمح الصول فرغلى يشعل القطع الصغيرة من الخشب فى عمق ملجئه، ويَنضج طعامه بنفسه دون أن يسمح له كالعادة بمجالسته وإلقاء نكاته المكشوفة. أسدل الستارة مموها بأنه ينوى الاستحمام، لكن طشطشة الزيت سمعها فتحى وشم رائحة التقلية.

ضرب كفا بكف، والموقع باجمعه يرزح تحت جفاف تشققت فيه شفاهنا، والله لاعملها فيه؛

اكوام من معلبات الفول والمربى، والخضروات، والأرز بقطع اللحم لها طعم واحد رمادى المذاق رغم مكعبات الثوم والبصل، نراها مبعثرة من حولنا، وقد احالتها قطرات الندى المتكاثفة، ولفح صهد الشمس إلى نفايات صدئة.

فى الليل الغطيس داخل الملجأ بدأنا عملنا فى إطار خطة محكمة لطهى الأرز والعدس جمعنا (صواريخ) أفراد السرية (والصاروخ لمن لا يعرفه فتيل من القطن المبروم منقوع فى علبة إسطوانية مليئة بالكيروسين، يستخدمه العساكر فى الإضاءة غالبا ولا نعرف اسم أول عسكرى مصرى اخترعه، ولا من الذى أطلق عليه ذلك الاسم!).. أشعلنا (الصواريخ)، وبداخل أروانة الجماعة وضعنا الماء أولا حتى غلى ثم أسقطنا الأرز مختلطا بالعدس القليل، وأسرع "سليم" بالتنقيب تحت لوحه الصاج، وأخرج فحل بصل بعد أن خلصه من الكيس البلاستيك. احضرنا الجراية، والجربنديات نزعنا منها الزمزميات وتحلقنا (الطبيخ) فى انتظار نضجه. اتفقنا مع افراد الكينجى على إشارة معينة إذا ما حدثت نوبة تفتيش مفاجأة، أو داهمنا الصول بغتة.

كانت الرياح تصفر، والبرد يخترق العظام. أفراد

الخدمة وضعوا (الزَنط) على رؤوسهم، وقبضوا على بنادقهم.

فوقنا فتحة الملجأ شبكة من الحديد المتقاطع. دون أن ندرى سمعنا صوته الأجش من أعلى ساخطا:
حضراتكو عاملين طبيخ يا نمر؟

لا نعرف كيف تسلل للمكان، وكيف لم ينتبه إليه أفراد الخدمة. هل صوت الهواء خدعنا أم المطر الغزير؟

أتى صوته مزمجرا: إجمع السرية بالأمر. الوقت حالا.

وجمنا للحظة، ثم اندفعنا جميعا ومعنا أفراد الخدمة الليلية بأيدينا نأكل من الطبيخ الساخن الذى أوشك على النضج، والبخار المتصاعد بنكهة فريدة يغمر وجوهنا. شبعنا وارتوينا من الماء فى الزمزميات، وتخاطفنا شرائح البصلة الوحيدة.

فتحى وحده كان يتلفت حوله فى فزع: لو عرف إنه أنا هيودينى فى داهية.

أشحنا بأيدينا فى وجهه ونحن نتضاحك: يخرب بيتك ما تتكلمش على العزومة!

عريس السرية!

انتشر الخبر فى السرية، مغاورى سيدخل دنيا

لم يُعرف من الذى سرب موضوع زواجه فى بداية فترة الراحة بعد طابور التدريب الأول. كنت عائدا من «الكنتين» حينما شاهدتهم ملتفين حوله يزفونه بأروانات الطعام فى صفين متقابلين وعبد الرحمن مخيمر وضع على رأسه بعض أفرع شجرة التوت بثمارها البيضاء اللذيذة، ودفع بصدره إلى الأمام بعد أن وضع علبتى فول فى صدره ومشى يتبختر ممسكا بذراع مغاورى الذى صار فى نصف هدومه، لكنه فضل أن يجارى أصحابه فى صخبهم وسخريتهم المجنونة بدلا من أن يصيبه مرحهم فى مقتل.

كانت الكتيبة قد انتقلت إلى سرابيوم حيث أشجار التوت الهائلة ملاصقة لطريق المعاهدة المرصوف بالأسفلت الذى راح يلمع تحت وهج الشمس الحارقة. ومن خلف الكثبان الرملية بدت أشجار المانجو بزهوها تكاد تنخ من ثقل الثمار.

أطلق مغاورى عبارته المشهورة التى ذكرتنى فى تركيبها بعبارات أبطال مسرحيات شكسبير. قال وهو يكتشف المكان فور نزوله من العربة «الزل»، جنة خلقها الرب للإنسان فما بال العساكر يفسدونها! قالها وسكت. وشهقنا من روعة المكان.

كان التهجير إجباريا، والحرب لم تبدأ بعد. فى عيوننا ألق الخضرة. بعد أشهر التدريب القتالى فى معسكرات المعادى وطريق بلبيس، وفرق العامرية.

لذلك فقد كانت سرابيوم كما قال مغاورى الذى حصل بالكاد على دبلوم الزراعة قطعة حقيقية من الجنة التى جاء العساكر ليفسدونها. لكنهم على غير العادة حافظوا على جمالها ورونقها. وهو العريس يواجه موقفا صعبا ودقيقا، يزف بالأفرول الكاكى وسط صيحاتهم المرحة، والأصوات تتعالى مع العفار والعرق يزحف فى إصرار: «صلى.. صلى.. واللى ما يصلى.. أمه يهودية.. وأبوه أرمانلى».

عليه أن يخلص نفسه من المازق، رفع يديه بتحيتهم، وواصل سيره والعرق ينثال على وجنتيه وأفراد السرايا المجاورة انضموا إلى الموكب وراح بعضهم يرقص منتشيا.

عند منحدر الملاجئ أوقف مصباح الزفة بيده، وراح يطلب «نقطة»، «الحلوين.. الحلوين.. العساكر.. العساكر.. اللى بيحبوا مصر.. وسرية الـ م.ط.. وسرية الـ م.ط.. وانا وانت». مد يده بقطعة صابون كنقطة للعريس مغاورى. وجاء آخرون بعلب سجائر، وأصابع موز، وأمشاط كبريت، وشلنات فضية وأمواس حلاقة.

حتى أن جيوب سترته إمتلأت بأشياء عزيزة لم يكن يستطيع الحصول عليها دون أن يكون عريساً حقيقيا.
غمرته الضحكات، وصارت القبلات تطوقه من كل جانب ولا نعرف كيف تحولت المسألة من مهزلة ومسخرة إلى لحظات فرح حقيقية حتى أن عينيه دمعتا وهو يلملم هداياه، ويجمع النقطة متجهاً إلى ملجئه فى الفصيلة الأولى.

لم يكن معى غير كتاب كنت قد أنتهيت من قراءته عصر الأمس فقدمته له، وأنا الذى أعرف أنه لا يحب القراءة، وكثيرا ما سخر منى لهذا، واتهم الكتب بالتهام بصرى. لكنه هذه المرة شد على يدى محيياً، وقبلنى وسط هذه النشوة العارمة والفرح!

وبعد أن شبع عبد الرحمن مخيمر قرصاً وزغداً ولطماً راح يتدلل ويطلب طرحة من التل، وفستان من

التيل الأبيض المطرز بالدانتيل وحذاء بكعب عال... ولم يكن قد أكمل طلباته بعد حين سمعنا صوت الأومباشى يحيى ينادى علينا للجمع فى لحظات استعدادا لطابور التدريب الثانى الذى خضناه مضخمين بعطر المودة، بانتشاء غمر أرواحنا حتى أن أصوات الأروانات - الدفوف - فى تلك اللحظة مازالت تدوى فى أعماقنا، «صلى.. صلى..» ونحن نرقب مغاورى فى حسد بعد أن انتصب واقفا كفرد عادى يكمل تدريباته، والعريس الذى كان قد رحل بعيداً ولو إلى حين!

لدغة عقرب

العسكرى غريب لدغه عقرب فى ساقه أسفل الركبة. كان يشاهد الدبابة السنتوريون القابعة أعلى التبة، والمضروبة فى الثامن من أكتوبر، عندما تسللت تحت بنطلونه الكاكى، فتمسه قشعريرة ثم تسرى النار فى جسده للحظات، ويصرخ بكل قواه فى الصحراء من حوله.

إرتمى على الأرض الرملية وزعق فى رفاق السرية، فطوّح الريح صراخه. حين تحامل على نفسه وأمسك بفخده، وزحف نحو الموقع. رأيناه جميعا بوجهه الممتقع. سأله العريف مختار: «خير. وشك مخطوف ليه؟»

إنتزع كلماته والعرق يتفصد به جبينه: «العقرب لسعنى!»

أسرع عبد الحكم وربط أعلى الجرح بمنديله الكاكى، وعندما رآه الرقيب يحيى نهره، وطلب أن يأتى أحدنا بسلك التليفون الميدانى.

عندمـا رفض جندى الإشـارة انتـزعـه فى عنف: «العسكرى هيروح فى شربة مية!» ثم ربطه بإحكام أعلى اللدغة.

فى حفرة صغيرة أشعل بعض أرانيك الذنب، وسخنّ مشرطا حتى احمر تماما. صرخ العسكرى غريب والمشرط يشق الجلد وينغرس فى اللحم، فيتدفق دم له زرقة لم نرها من قبل، ثم راح الرقيب يحيى يمتص بفمه الدم الفاسد ويتفه مرات ومرات؛

مددوه على السرير الصاج فى ملجأ الفصيلة الثالثة، وضربه صابر على كتفه، «عقرب يعض فى عقرب. تيجى إزاى؟»

كان دمه هاربا فطمأنه العريف مختار بأن لا خطر طالما الإصابة بعيدة عن القلب. وحده الصول حنفى الذى تمهل فى سيره أمام باب الملجأ وهتف فينا عندما رأى انزعاجنا، «انتم تعملوا من الحبة قبة. الخوف على العقرب مش العسكرى غريب!» لكن قفشاته لم تضحكنا هذه المرة، وأحس بذلك فجلس بيننا صامتا.

شمل الموقع ترقب وقلق، والتفنا حوله نواسيه ونكلمه عن أخطار أخرى لم يعرفها. عن قنابل الألف رطل ودانات تنفجر فى الهواء فتطيح بالإنسان وتدفنه حيا دون أن يتلفظ بكلمة؛

عندما علم الملازم صبحى الجلاد بالأمر أتى إلى الملجأ على عجل. قمنا جميعا حين رأيناه يحنى رأسه ويلج الملجأ.

اشار لنا أن نعاود الجلوس على أطراف الأسرة التى صنعناها من الصاج المتعرج وغرارات الرمل.

قدمنا له التحية: «اتفضل سيادتك.. شاى بالقرنفل!»

ساله فى لوم مشوب بعتاب: «أيه خلاك تروح هناك؟»

اجابه بصوته الواهن انه أراد أن يشاهد الدبابة عن قرب، وانه حين صعد البرج، ورأى التجويف الهائل داخل الهيكل الحديدى انتابه الزهو لأن «القول» باكمله ضرب فى نفس المكان حيث المفصل فانفكت الجنازير وعطبت الدبابات. وأن الماسورة المتجهة ناحية بيوتنا وأهلنا منذ تلك اللحظة صارت بلا خطورة بقذيفة الـ م. د.

كان يريد فقط أن يرى شيئاً من رائحة اكتوبر، لأنه دخل الخدمة بعد الحرب بأشهر قليلة.

ربت معاطى على كتفه: «ما شوفتش عفرة الحرب، ولا شميت ريحة الصدام !» غاب عنا سؤالاً كان ينبغى أن نساله إياه. نطق به الملازم: «إنت قتلته؟» سال العسكرى غريب بدوره: «مين؟ العقرب؟.. أبداً!»

تنبهنا جميعا لخطورة الأمر، لأن الموقع يقع أسفل التبة مباشرة ووجوده حيا خطر داهم علينا.

فى سرعة البرق تحركنا جميعا. كل أفراد السرية، بالعصى والكواريك والبلط وهرولنا ناحية الدبابة

السنتوريون. كانت ترقد كجثة هامدة فاقدة الروح ومن حولها قذائف الـ م. د التى لم تنفجر، وبعض معلبات الصاج، وأعشاب قليلة يابسة، وصفراء اللون.

رحنا ندور حولها، ونضرب الجسد الصلب بما فى أيدينا، وفجأة وجدناها تتحرك بجرمها الضئيل، ثم سرعان ما تسللت واختبأت داخل البرج، فلم نعد نراها. قضينا وقتا نبحث عنها دون جدوى حتى هبط الليل.

عدنا فى قلق إلى موقع السرية ونحن نتواعد على النهوض عند أول شعاع ضوء لنسحقها بكل الغيظ والكمد فى صدورنا.

بلديات

انفلتت صرخة من فمه وهو يتعثر فى الأوتاد المدقوقة بعناية حول فتحة التهوية ثم ما لبث أن سقط فوق أروانات الطعام مرتطماً بأيدينا الممدودة، وركبنا فى وضع القرفصاء. اختلط العفار بصياحنا الفزع، وطغت كلماته المعتذرة على احتجاجنا: أعتذرلكم لم أر فتحة الدشمة.

كان الضوء خافتاً وأشعة القمر فى سطوعها الليلى امتصت تلك الحزم الباهتة من أشعة الفتيل الزيتى فى علبة الجاز. نفض أفروله وتحسسنا أطرافنا ثم خففنا عنه وطأة الشعور بالذنب: مد يدك يا «دفعة».

قال أنه كان ذاهبا إلى قيادة الكتيبة ليحصل على إمضاء رئيس العمليات بالنزول صباح الغد إلى مستشفى القصاصين.

سألنا فى إنزعاج وصوت الارتطام العنيف لم يغادرنا بعد: يبدو أننى ضللت طريقى.. طيلة سيرى استوقفتنى عشرات السناكى. فى أى مكان أنا؟

قلنا له فى صوت واحد: السرية الثالثة:

صحت فيه مداعبا: على يمينك برج المراقبة، وعلى يسارك سيارات الحملة، وامامك حقول البطيخ وحفر الـ م. د. وخلفك كتيبة الصواريخ. فاين المفر؟

حدجنى بنظرة محتجة: يبدو أنه لا مفر فعلاً.

إعتدلنا ثانية نستجمع أنفاسنا، ونلملم الأرغفة، وحبات الزيتون الأخضر وقرون الشطة، أما قطعة الجبن فلم نعثر لها على اثر. هززته من كتفيه، وكان يخفى ضحكة ويعض على شفته السفلى: هات الجبن يادمرانى!

مد يده بالجبن موبخا إياى: كنت ساقتسمها معك!

فتح خالد الراديو الترانزستور على أغنية لأسمهان.

قال الزائر الليلى وهو يمضغ لقمة: ليالى الأنس فى فينا. فالس هائل يمتعك.

ضحكت: ليالى الأنس الحقيقية هنا فى الدفرسوار. كم أمضيت فى الخدمة؟

قال كالتائه: أربعة أشهر. أعرف ما تنطق به عيناك. نعم أنا جندى مستجد، وضعيف البصر أيضا. وكان ينبغى أن أخرج معافاة. لكن القوميسيون الطبى أدرجنى فى الأعمال الكتابية.

صرخ فيه الشاويش عبد الرازق: أتحكى لنا قصة حياتك؟ أما يكفى سقوطك فوقنا كأنك جندى مظلات؟

ضجت الدشمة بالضحك. وقام سعيد يصب الشاى فى أكواب الزمزميات البلاستيك، وحده عبد الرازق مد يده بكوبه الزجاجى الذى عثر عليه فى إحدى النقاط الحصينة مع مهمات عديدة أحتفظ بها لنفسه كحكيمدار الجماعة. واختلس حبتين قرنفل من برطمان مكاوى الذى كان يسعل فى خدمته البرينجى.

راح منصور يغنى مع الصوت الرقيق ويخاصر عمود التنشين الاحتياطى راقصا: كان شعرها مجعدا. ولها حسنة:

أوقفه عبد الرازق: تذكر أنك فى فترة إيقاف النار، وبعدها تعود العمليات فارقص وقتها كما تشاء.

اخترق السكون أصوات طلقات رشاش، فأغلقنا الراديو وأرهفنا آذاننا للسمع. قال الزائر: يبدو أنه اعتراض ليلى.

قلت بنبرة تخفى شيئا من الأسى: يبدو أنك لم تخض الحرب.

هز رأسه مؤيدا، ورنة الحزن تسللت إلى صوتى: الطاقم الذى تجلس معه الآن فقد جنديين فى اكتوبر.

دفناهما فى حفرة المدفع، وأريناهما الرمال ثم أخلينا الموقع وتقدمنا. كان الغبار والعطش، وكانت الشظايا تقتل. وقتها كان الاعتراض داميا، وكانت المواجهة، الدماء التى نزفت منهما أبصرها فى كفى مازلت.

حدق برعب ناحيتى، وأرتشف من كوب الشاى، وفى انفعاله امتص التفل: أيوجد أحد فى السرية من فارسكور؟

اندفع عبد الجواد الذى كان صامتا طوال الجلسة: من فارسكور؟ أنا.

قام يتأمله، فى الضوء الشحيح يفحصه: أنت بلديات؟

مد يده بكوبه وأجلسه إلى جواره: إشرب.. أشبه عليك.. نعم.. أنت سمير.. لا.. اسمك سامى.. نعم.. ابن ناظر الابتدائى. كيف حال والدك؟

تعانقا، وصفق بيديه الغليظتين صفقتين فاحنيت رأسى ممسكا فوطتى الميرى الزيتية: أية خدمة؟

أمرنى بعنطزة تليق بالأكابر: واحد حاجة ساقعة.

انتفض سعيد سأقدم الطلبات بدلا منه.

ثم بفمه أصدر صوتا مكتوما، ومد يده بزجاجة المياه الغازية الوهمية. وأعدنا فتح الراديو وأدرنا المؤشر حتى

اتى صوت صبرى سلامة (ع الماشى).. قال عبد التواب: سأذهب معه، لأوصله قيادة الكتيبة. احتج سعيد: ألا تكمل مشروبك؟

لا نعرف كيف أتانا هذا المرح، فضحكنا من جديد. وقمنا جميعا نصلح الأوتاد ونغطى فتحة الدشمة بالمشمع، ونطهر بالكواريك الفتحة الضيقة، ونودع سامى الذى لم يحارب أكتوبر، لكنه بالتأكيد سيكون معنا الحرب القادمة!

جندی مؤهلات

تم توزيع دفعتى بعد شهرى الأساس على الوحدات القتالية. وقعت قرعتى ومعى زميلان فى الانضمام لإحدى الكتائب الملاصقة للقناة.

عرفنا ذلك بعد أن نزلنا من القطار الميرى وحملنا المخل على أكتافنا وسرنا فى الحر القائظ عشرات الكيلو مترات، وأصابعنا مهروسة داخل البيادات اللعينة.

امسك رجل الشرطة العسكرية أورنيك التوزيع. وأشار لنا تجاه الشمال الشرقى حيث المدق الجيرى، ونصحنا أن ننتظر سيارة التعيين ونتعلق بها؛

لم يكن بوسعنا أن نهمل نصيحته. حين رأينا العفرة أدركنا أنها قادمة. أومأ لنا أن نتسلق الجوانب. تشبثنا بألواح الخشب، زعق فينا السائق؛ «يوم مش فايت. بالهداوة يخرب بيتكوا »

لكنه فى الطريق، ومع انحناءة المدق، وتأرجح أجسادنا أوقف العربة للحظة، وجعلنا نركن بظهورنا على مكعبات الصاج الساخنة الممتلئة بالطبيخ. سألنا؛ «معاكم سجايرة» وجمنا، فمد يده- ضاحكًا - بعلبة

سجائره: «ولا يهمكوا.. عفرّوا».

جمعنا الشاويش عبد الخالق وسألنا: «من فيكوا مؤهلات؟»

تقدمت للأمام خطوة: «أفندم».

تطلع لوجهي يتفحصني. ويدقق في ملامحي. ثم صرفهما. وقال لي: «تمسك دفتر الخدمة من النهاردة.
»

في الملجأ توجس مني العساكر القدامى، وسألني واحد منهم: «لك ضهر يا دفعة؟» استنكرت السؤال: «مش فاهم».

هزني محملقا في وجهي: «بلدياته؟»

اصطنعت الضحك: «أبدا أول مرة أشوفه».

سكت وسكتوا. سكتنا جميعا، وصوت غليظ يأتينا: «اجمع للتمام». لم تكن الحرب قد نشبت بعد، ولم يكن ثمة ما يشير أن شيئا سيحدث؛ فبطاريات الصواريخ خلفنا مصوبة تجاه مواقعهم، وطلعات السوخوي نرقبها مع أول ضوء وآخره. واحتلال الـ م. ط للمواقع يتم بحكم العادة.

حين صدرت الأوامر بإنشاء حفر جديدة وملاجئ يسار الموقع الحالي وجدت الحياة تدب في المكان.

حلمى يأخذ الكوريك ويصنع فجوة هائلة، وعبد الحى الشربتلى يدحرج قطع الحديد المقوس، وزميلاى يحيى وعبد الفتاح خلعا السترة وراحا ينقلان أكوام الرمل الناعم.

الكل من حولى يتحرك، والحفرة الأولى تتسع، وعوارض خشبية أتى بها سليم منعت الردم.

وحدى كنت أقف لا أدرى ماذا أفعل؟ والملجأ يتشكل أمام نظرى، والحافة تُثَبت بالشكائر البلاستيك. قلت أساعدهم، ورحت أضيق المسافة بين كل شيكارتين وأشبك الشناكل الحديدية.

فى زحمة العمل أتى الشاويش عبد الخالق، وضع يديه متشابكتين أمام صدره، ثم صرخ فى وجهى: «بتنيل أيه يا عسكرى؟».

عاجلنى زميلى صبرى بعبارته الدامية: «أصله جندى مؤهلات».

ضج الموقع بالضحك، ومعهم ضحكت، أما الشاويش عبد الخالق فقد ربت على كتفى: «بكرة يتودك!»

مسعد بنزين

رغم بخلى الشديد فقد استطاع مسعد أن يقنعنى بإقراضه جنيهين حتى أول الأسبوع القادم. قبل أن يدخل فى الموضوع أدخلنى خيمته، وسوى لنا كوبين من الشاى المعتبر فى حفرة على بعد ميلين من عهدته مخالفا بذلك كل التعليمات العسكرية الشفوية والمكتوبة. مد لى يده بسيجارة «بلمونت». فلما عرّفته - للمرة المائة- أننى لا أدخن مسح بيده على شاربه الخفيف، وتمتم: دع الأيام تمضى. الخدمة صعبة. أول إلحاقى بكتيبة ١٨ مشاة. أشار لى الجنود القدامى إلى «الحملة» قائلين: إذهب إلى بلدياتك.

قابلنى ببشاشة آسرة لن أنساها.احتضننى ونظر فى وجهى صائحا: من أى عائلة؟

فلما أخبرته راح يعدد لى أسماء أقارب لى. بعضهم أعرفه، وبعضهم لم أسمع باسمه من قبل. ضحكت: شيخ حارة أنت؟

قال لى وهو يقضم أظافره: الجيش هذا له قانون صارم. إذا أحببته أحبك.. وإذا كرهته كرهك.

قبل أن أجفف عرق وجهى كسر فحل بصل وجلس فى مواجهتى يمد يده «بالجراية» الميرى لنغمس العدس، إعطنى جنيها واحدا. كانوا قد حذرونى من الاعيبه ولم يكن معى فائضا من النقود، ليس معى. تفحصنى فى غيظ، جندى مستجد ومفلس وتقول انك من الشرباصى؟

أولاد الأبالسة حذروك منى؟!

ضحكت وانا انفى الأمر. لكنه أشاح بيده واكمل جلسته، كُلْ. جيشك مازال فى قعر المخلاة!

راح يدس قطنة فى كوب زجاجى ممتلىء بالبنزين، ويقربه من انفه وهو يرمقنى متوجسا وكأنه يتحدانى، أيه.. مزاج!

قلت له، ألهذا لقبوك بمسعد بنزين؟ ضحك وغمرته سعادة لم أرها فى وجه انسان منذ سنوات : نعم، مارأيك إنه لقب يصلح لى.. مسعد بنزين.. لا يشاركنى فيه حتى الأوبك؟!

جرنى إلى المنطقة الصعبة فى حياته. لم تكن ملامح وجهه تشى بالكذب. كان يكررها وكأنه يقف فى مواجهة الموت يدحضه بإجازة تنقذ حياتها، لابد أن أراها. كانت أمه التى يحبها. هجرها أبوه منذ طفولته، وسافر إلي

الأسكندرية وتزوج هناك أرملة ثرية وتركـه ولم يعـد يسأل عنه. قال لى مسعد: أنا الآخر لا أريد أن أراه. قل لى أى دم هذا الذى يتحـول الى مـاء؟ لا صلة لى به مطلقا.

دوّره الصول فرحات مكتب بالخوذة والشدة الكاملة. وحصل على تصريح الإجازة بإعجوبة.

تغيب أسبوعين وجاء متورم العينين من بكاء على أمه العجوز مررت عليه فى خيمة الحملة حيث تصطف عربات الجيب واللوارى: شد حيلك، البقاء لله.

كان يهز رأسه حزينا، مستغرقا فى تأملاته: أرسل له أعمامى وأتى ليحضر الجنازة. لم يسأل عنى ولم أحاول السؤال عنه: عند أخذ واجب العزاء ظل يرمقنى بطرف خفى، وضبطته يخرج قطعة قطن تفوح بالبنزين يشمها. قلت له وأنا أهز رأسى بسخرية. صدقت قوانين مندل بالبنزين يا أبى. صـافـحنى دون أن ينظر فى عـينى ومضى، تركنى أبكى.

حين أغارت طائرات الفانتوم على مواقع الكتيبة. راح يعدو إلى مكان تجمع سيارات الحملة، يخفيها هنا وهناك تحت أفرع الأشجار الكثيفة. بيده قطعة القطن المبللة بالبنزين. يشمها بمزاج. الكل فى مخبئه إلاه.

تطايرت شظايا قنبلة قرب سيارة قائد العمليات. اشتعلت النار فى المحرك. رمى قطعة القطن بعيدا. خلع سترته، وراح يطفئ النار المشتعلة، بينما الدخان يتصاعد، وهو يسعل ويسعل.

حين انتهت الغارة. مد يده ليتناول قطعة القطن التى تشبعت برمل الموقع الخشن، مزاج يا دَفعة؛

صافحنى بلا سبب وهو يهمس فى أذنى؛ لو مُت يا وحش لضاع عليك جنيهان.

قلت له مداعبا؛ من الأفضل ان تكتب وصيتك من الآن.

هز رأسه وهو يشم البنزين من قطعة القطن التى التصق بها رمل كثير؛ العمر واحد والرب واحد.

وراح يبحث عن سترته القديمة فى خيمته، بدلا من تلك التى تفحمت عن آخرها.

كان يتمتم لاعنا الغارة وأصحابها؛ الله يخرب بيوتهم.. صافحنى دون ان ينظر فى عينى؛ ياصديقي.. خجل هذا أم حزن؟ لم أكن أعرف بأى شيء أجيبه، فانصرفت فى هدوء إلى سريتى التى كانت تجهز مدافعها نحو الشرق.

خلع الجذور

خلع الجذور، فعلقت بها بقايا الطين، ادخل أصابعه فى الفراغ الذى رآه رغم الظلمة يتسع لتختفى فيه قبضة يد المضمومة.

وعلى التل حين هبطوا، كانوا بأحذيتهم المطاطية الغليظة فى طابور السادسة، يجأرون بصيحتهم التقليدية. حين اندفعوا الى التبة حصدتهم رشاشات «العوزى» وبقى مع عبدالحق ويسرى. أمكنهم أن يسحبوا الهاون ويختفوا وراء ساتر من غلالات رملية خلف شجرة سدر.

كانت الشجرة متفحمة لكنها تحمى أجسادهم وتمنع عنهم العيون البصاصة. عيون الأعداء الذين يطلقون نيران رشاشاتهم فى تشف وغل.

ظل يبحث عن الخوذة، وقايش الوسط، ورقعة المعدن التى تحمل اسمه ورقمه العسكرى وخطاب داخل حافظة جلدية تركها قبل تسعة عشر عاما. فى الليل وعلى امتداد شهر كامل يشعر بتلك اليد تهزه. تلكزه فى جنبه كى يذهب ليحضر تلك الأشياء التى تركها

رفيقه قبل أن يهوى شهيدا. دفنها فى هذا الموضع بالذات على أمل أن يرجع بعد انتهاء العمليات، ويعطيها زوجته.

امتدت الأيام، تكاثر الجرحى، وتم إخلاء اكثرهم إلى المؤخرة. أصابته شظية فى ساقه. دخل المستشفى الميدانى (القصاصين)؛ وخرج يعرج. سرحوه من الخدمة. لم تكن أشياء ذات قيمة. ما معنى أن يذهب إليها ويعطيها إياها. لا تعنى لديها سوى نكأ الجرح من جديد. جرح لم يندمل لروحه التى شققتها المآسى.

لو أن رفيقه ترك نقودا أو ذهبا أو حتى ساعة يد لأجبر نفسه على الذهاب بنفسه مهما كان المكان بعيدا. وهل ينسى الباب الذى انفتح فجأة ليسقط الحكاء الصعيدى على الطريق لينزف قصصا دامية عن فقراء يفترشون الرقعة الزرقاء؟

من أدراه أن السيارة لا تفعلها؟ لن يجد من يوصل أشياءه لزوجته التى كلما لمحته يتقلب فى سريره أرقا، وضعت يدها على رأسه وقرأت الفاتحة ليهدأ ويشفى. لم تفلح الحبوب المهدئة ، ولا إقناع الأصدقاء له على المقهى بأن موقفه سليم إذ ماذا تفعل زوجة غاب عنها

زوجها بخوذة، وقايش وسط، وسلسلة تحمل رقعة معدنية قد محت السنون حروفها؟

خلع الجذور، وقلب بيده التربة، غرف الحصى والرمال، وبقايا القواقع القديمة. هو نفس المكان، لقد حدده يومها بوضوح أمام ملجأ التعيينات، وفى مواجهة ترعة الاسماعيلية، على مرمى حجر من برج الاستطلاع الذى أزيل الآن. كل المعالم تغيرت إلا نور فى قلبه يهديه. الأشجار حوله مصفوفة ومثقلة بثمرات المانجو.

جسر حجرى مازال يحتفظ بشكله وهيئته وإن تحطم سوره الذى كان يجلس عليه أحيانا قبل الخروج لخدمته الليلية.

جاء بالكوريك، وحمل الطين الناشف، وأبعده قليلا. بحث بإصبعه، بينما استند بركبته على الحافة. لم يجد سوى عبوات بلاستيكية، شامبو الشعر، ومسحوق تجميل الوجه، وعظام طائر تفتت فى يده. لا وجود للخوذة مطلقا.

لو كانت هنا للمسها بيده أو لاصطدم جاروفه المعدنى بها.

أوشك أن ينسحب فى هدوء ليخبر الزوجة بالأمر. لعله يرضى ضميره، لكنه فى نفس اللحظة التى قرر

فيها العودة ابصر رجالا على امتداد الترعة، وفى مواجهة الموقع القديم يحفرون بأصابعهم وينبشون فى صمت مريب. رأى ذلك رغم أن القمر كان غائبا ونور المصابيح الشحيح لا يكاد يبين الملامح.

كانوا ينقبون عن أشياء لا يعرف أهى قريبة الشبه بما يريد أم لا ولقد انشغل كل فى البحث، أما هو فقد وضع يده تحت خده ليفكر من جديد فى هؤلاء الرجال لقد تأكد الآن بحدس لا يخيب انه قد رآهم قبل ذلك فى ريعان شبابهم منذ سنوات بعيدة!!

خوذة..ونورس وحيد

(١)

كان جسمى هامدا. غفوت للحظات، ثم فزعت على ارتجاج السيارة خلال عبورها الكوبرى المعدنى الصدئ. على مدى البصر تمتزج مساحات الزرقة القانية بالأخضر المعشوشب، والنوارس تحلق ويبتلعها خط الأفق.

تحسست جيب سترتى، لمست أصابعى خطاب فريد الكومى، كان يحمل الدعوة صريحة، بخطه المنمنم الذى ألفته.

تبين لى أن الطريق قد تغيرت معالمه بالكامل. اختفت الملاجيء وبطاريات الصواريخ. التباب الحاكمة على مفارق الطرق خلت من حراسها، وعوائق الدبابات الحديدية ثم تجميعها كيفما اتفق. والجنود رأيتهم جميعا بلا خوذات. بعضنا منهم يقف حافى القدمين، يحملق فى المجرى المائى الرائق.

تحسست ذقنى النابتة. وابتسمت بمرارة للأيام الفائتة. أعوام عديدة عبرتنى. النهار يفضح كل شئ. ثقل المهمات ما يزال يجهد ظهرى. غمرنى المكان بدفء

مفتقد. أمام هذا المعبر وقفت فى آخر إجازاتى أبكى كامل البصراطى، وأنا أحمل حافظة أوراقه، وخاتم زواجه. كلماته مضمخمة بالنشيج : «البحر صاحبى» إربدت السماء فجأة، والسيارة تمرق على الطريق الاسفلتى اللامع، قطرات خفيفة سقطت، ثم انقطع الرذاذ، اللافتات الضخمة البراقة فى مدخل المدينة تواجهنا بصلف. فى استدارة الطريق ضمد حلمى بدر جراحى حين انقلبت سيارة «الجاز». قفزت فوق الرمال الساخنة. إرتطم بساقى وتد خشبى قديم. تعثرت امرأة فى كومة القماش التى تحملها. كادت تصطدم بالسيارة، أشاحت بيدها فى وجه السائق الذى بادلها السباب.

كنت أشعر بوطأة الأعوام، وأمسك بيدى خطابه، واستعيد كلماته. نحن تواعدنا. حين كان الموت يرف فوق رؤوسنا. وقنابل الألف رطل تحيل الموقع إلى كتلة مختلطة من الدم واللحم والرمل والشظايا الملتهبة. و«سمية» طيف مراوغ يأتى نحيبها يحتوينى . قرّب الصفتى زمزميته من فمى. أمالها لبرهة. صرخ فى: «بلل شفتيك فقط. لا نعرف هل يأتى الماء أم نموت عطشا؟»

إنترعتها من يده، تجرعت الماء حتى ارتويت. راقبته يزحف نحو حفرة الذخيرة، والله لن تنال من تعيينى الجاف لقمة واحدة. ضحك كل من فى الموقع وأعاد الرقيب عطوة تصويب المدفع . لمحت ظهره المقوس قليلا كأننى أراه لأول مرة. وانحناءة كتفه. أشار بيده تجاه القول المتحرك من المجنزرات، استعدوا للقصف. انحرفت القذائف، وتشبثت يدى على المقبض الأفقى، أدرته. أعدنا القصف.. أفلتت المجنزرات هذه المرة أيضا.

فى الليل الكحل المرتجف بالآهات المكتومة كان البوح باتساع الاحلام.

خالى وهبة الذى مات منذ أشهر قليلة شد على يدى، ابتسم فى وجهى ثم اختفى بين فوارغ الطلقات النحاسية الفارغة، وصوته يتلاشى فى أسى.

استدرنا بالمدفع، جهزنا العبوات ثم أحكمنا الرمى، انفجرت القذيفة أسفل البرج وانفك الجنزير. عطبت دبابة، وهرول الجنود فى اتجاه الشرق. أعمل البصراطى مدفعه الرشاش فيهم. كان يقضم ثمرة جوافة مخضرة. يضرب، ورائحة الشياط تزكم الأنوف. جو ثقيل مكتوم. وسرية المشاة تتقدم فى أنساق تلو

أنساق. أمام موقعنا تحفر بالكواريك والأظفار. سمعنا أزيزا عاليا، وفجأة انشطر الترقب بقذيفتين. أطارت الأولى مدفع ماكينة بالعريف صديق. جاءوا بالماسورة وجسد ثقبته الشظايا. أمالوه فى الخندق التبادلى، وقرأوا الفاتحة، وظلوا يحفرون.

القذيفة الثانية ردمت ملجأ التعيين الاحتياطى، فوضعنا عامود التصويب مائلا فوقه، وابتعدنا عن دائرة الخطر.

كانت طائرتى الورقية تصطدم دوما بمئذنة الشرباصى، تتعقد خيوطها مرة بأسلاك الهاتف، ومرة تهوى فوق أعشاش الدجاج، تتقافز فزعة والجيران يشيرون لى أن أرخى الخيط قليلا، وابتعد.

خرج جرجس معفرا، «أنا حى.. أنا.. حى» خجل للكلمات التى فضحت خوفه. اغتصب ضحكة. ورأيناه غائر العينين، تحت حاجبيه الكثيفين جرح عميق، ودم غزير ينزف.

الكومى يلطم خديه. بطاقته الشخصية، وبعض جنيهات فقدها فى مياه القناة منذ ثلاث ساعات. بالتحديد، فى النسق الثالث للكتيبة. صرخت فى وجهه، «لماذا تريد النقود، هل وثقت بالعودة؟»

افلتت من فمه صيحة: «ومن يعرفنى إذا مت. من يعرفنى؟»

كان وجهه مصفرا. يبحث فى جيوبه المرة بعد المرة. يريد ان يعثر على ذاته وسط هذه الفوضى العارمة، تقدم نحوي: «أرجوك اكتب اسمى بقلمك على سترتى. أريد أن يعرفوا لقبرى مكانا» كنت أعرف أن الموت فى حروب كتلك ليس له طقوس. ولا رتوش. أردت أن أهدأه. كتبت اسمه بخط واضح على ظهر أفروله الكاكى. عاد إلى وجهه الصفاء القديم: «لكن يا ترى أين ضاعت جنيهاتى؟»

(٢)

وقفت السيارة أمام عائق معدنى أنزله جندى الشرطة العسكرية، فأحدث دويا حين اصطدم ببرميل ضخم من الصاج الأجوف.

كان المكان مزدحما بأناس يحملون حقائب ممتلئة بالأقمشة والنايلون، والكبريت، ومعلبات الأناناس، وقطع اللبان، ومساحيق التجميل ومشدات الصدر بألوان زاهية. أشاروا علينا بالهبوط من السيارة. حشرت جسدى وسط جموع الناس. يلغطون فى انزعاج. لم يكن معى شئ يمكن أن يخضع للتعريفة الجمركية سوى

ذكريات قديمة قديمة تتجدد دونما إرادة منى، تحيرنى بسطوعها الدائم. كم من مرة عدت من هذا الطريق ليلا لأقضى إجازة الأربع والعشرين ساعة. كان الطريق حينئذ موحشا وخاليا من البشر، لم تكن هناك سوى دوريات سيارة، وكمائن فى مفارق الطرق، وتدريبات ليلية متواصلة.

فى تلك الليلة من ديسمبر، هجمت الأمواج على الطريق الساحلى، وكادت تبتلع السيارة. أبطأ السائق من سرعته. أغلقنا الزجاج، وانحرفنا لليسار. غاصت إطارات الكاوتشوك فى طين لزج، والبرد القارص ينخر العظام.

قلت لأمى أن الدنيا برد، وفانلتى الصوفية قد ثقبت من ناحية الكوعين، واننى خجل،لا أستطيع الذهاب إلى مدرستى. ربتت على كتفى، لم تخبرنى أن أبى مات، وهو حين دخل حفرته المظلمة لم يترك لنا مليما. لكنها أحاطت رأسى الصغير بساعديها. وسهرت ترتق الثقبين الكبيرين، وثبتت قطعتى الشمواه فى إتقان. فى تلك الليلة ظللنا طيلة الليل نرتجف. نحاول بأذرعنا العارية انتزاع السيارة دون جدوى.

عندما أتى الفجر بخيوط نوره الشحيحة، جرجرت

ساقى مجهدا إلى كتيبتى، عاصبا رأسى بالمنديل الميرى. العن الأنواء والإجازات الشتوية. إلى نوبات الحراسة والتفتيش الدقيق على السيارات المارة بطريق الجلاء: «كلمة سر الليل. إثبت محلك. إثبت. تقدم.»

تحسس ملابسى. قلب ياقة قميصى. سألنى بحدة: «أليس معك شئ؟» الا ترى الندوب فى وجهى، وأخاديد الحزن الأبدى، وظلمة تكبلنى. هززت رأسى نفيا. حدجنى بنظرة ساخرة، وسمح لى بالمرور: عدوت إلى السيارة. منذ فترة طويلة لم أعدو.

فى اليوم الثانى للعبور. صدرت الأوامر من قيادة الفرقة بالتحرك يسار التبة الحاكمة وتطهير موقع استطلاع تحتله وحدة معادية. كان علينا أن نمهد بستارة من نيران المدفع. أصر الصفتى أن يتعامل معهم بمفرده. راح يزحف نازلا المنحدر. سمعنا طلقات بنادقهم تنطلق نحوه. إلتصق بالأرض. اختفى خلف بعض العشب الأخضر الذى عودنا أن نركن إليه فى الصعب، والعفرة قانية. من الجربندية أخرج قنبلة يدوية نزع فتيلها، ألقاها ناحيتهم. إنفجرت على مقربة منهم. اكتشفوا مكانه. راحوا يمطرونه بدفعات بنادقهم العوزى. ندت عنه صرخة. كانت صرخة الم هائلة.

عدوت ناحيته. صرخ الرقيب عطوة فى وجهى أن أرجع.

أعادنى كبيرهم بعد أن دخلت السيارة، تحسس ملابسى. فك أزرار سترتى «ليس معك شئ. لماذا تحدجنا بنظرة عدائية؟». كان الصمت جوابى. رأيته ينزف. الدم يصبغ سترته. لكن أصابته غير قاتلة. جررته والرمال تود لو تبتلعنى. نظر لى: «الحرب ليست صعبة يا صاحبى. لعبة نستطيع أن نجيدها». زحفت على ركبتى فى العودة. وحين صرت بين الرجال اختلج شاربه الكث. تألم. صرخ وهو يحتضننى: «لن أموت. أليس كذلك؟».

حين حملوه فى النعش، انفتحت شبابيك البيت، أطلت نسوة نائحات، لوحن بالطرح السوداء. كنت أتخبط بين الأقدام، وعم حمص تسبقه الرايات الخضر، يتقدم المشيعين كعادته دائما وتهتز رأسه: «سبحان الحى الدايم». عاد الجندى عبد العظيم مرتبكا، تتزاحم الكلمات على شفتيه: «أمسكنا بأسير. عيناه زرقاوان». كان الملازم صادق يقتاده، ولحيته طويلة، ونظراته زائغة متحدية. مر بالموقع. فصمتنا جميعا إلا الكومى. زعق فى وجهه بل غرس أصابعه فى لحمه: «أسير بحق وحقيق».

كان الكومى يحكى لى أن الظرف الأصفر المختوم بالنسر الأسود الكالح حين فتحوه، عرفوا أن المَحضر الذى وقع الحجز على أثاثهم القديم وسجاداتهم الحائلة وحتى صورة الجد على الحائط. قد صارت أمانة فى أعناقهم. وأن القشة التى فى الكشف لو ضاعت لراحوا فى داهية!

آن للجروح النازفة أن تبرأ. همست فى أذن الملازم صادق: «لو أن جندياً منا له هذه اللحية. ماذا كنت تفعل معه؟». ضحك: «حبس خميس وجمعة!» كنت محبوسا داخل رغبة وحشية فى أن أنزع عن وجه العالم أقنعته الخزفية. أن أعيد اكتشاف الأسرار، وكشف الحياد المراوغ. ذلك الوطن فى حبة القلب، تسقط عنه قشرة الخواء الصلدة، وتغوص فى انجذاب حقيقى للجوهر. لحظة أن نقض غشاء الصمت الأبدى. تعدو بى الأيام، ولا تفارقنى تلك الصرخة الفزعة، ولهاثها المحموم. أدفن وجهى فى الأغطية ويأتى صوته مرتجفا: «غطى الأولاد.. البرد قاتل». أفلت من زيف وبهرجة الأضواء التى خلفتها منذ قليل.

حيث الأرصفة مكتظة بالأقمشة الملونة والبضائع

المزخرفة. يتدافع الزبائن بالمناكب بحثا عن متع ملونة شائهة.

فوق هذا الرمل وفى الجانب الآخر. شعرت مع رفاق طاقم الـ م . د بحقيقة الوجود، وعبث ذلك التجميل الذى يزيد الوجود قبحا. تومض فى رأسى عشرات الصور التى تصطدم مع ذلك الانحناء الأبله للقادم المتغطرس.

كان مزهوا بضجيجة الهائل. يأتى مدججا بالنيون وببنس الشعر وشرائط الڤيديو وصناديق التفاح وانابيب الشامبو، واعلام ذات نجوم زرقاء يدفعنا دفعا نحو الجدار ويلطمنا بقفازه على وجوهنا الحائرة.

كانت رسالة فريد الكومى تجدد العهد الذى قطعناه لحظة الموت والمواجهة. ولم اكن واثقا اننى ساتقبل الأمر كالمنوم. وأسعى إلى الوجع القديم والدهشة المتأججة. أسعى إليه تاركا ركن المقهى. ومدرستى التى يرتفع فوق صاريها كل صباح علم الوطن الذى رفعناه يوما بالدم؛

فى مدخل مدينة الاسماعيلية واجهتنا الأشجار المغسولة بالغسق، والاخضر الذى يومض بالإخصاب. على ذلك المقعد الصخرى جلست معها. حكت لى عن شعورها الدائم بالحنين إلى منزلهم بسقفة المائل. والمدفاة التى لا يستخدمونها، لكنهم وضعوا فيها أصصا بها زهور الياسمين. حكت لى عن بيتنا الجميل الذى تعتقده. ولون نوافذه البرتقالية. كان ثوبها منقوشا بورود كبيرة ملونة. وكنت أحيطها بساعدى. أشعر بها تأخذنى من يدى، وتطير فوق الحدائق التى اختنقت بالغربة لرحيل أهلها إلى مهجرهم القسرى الموحش.

وجهها الناعم يبوح بالعشق الخجل، وصوتها المتهدج يأسرنى: «شعر رأسك قصير للغاية. ما العلاقة التى تراها يا سعيد بين طول الشعر والحرب؟».

أهز رأسى فى غير إقتناع: «انضباط عسكرى». تأخذ يدى بين يديها البضتين وتضحك: «أمور شكلية.» تسرح وتنظر إلى النوارس الحائرة فى الأفق. ألم أخضر عميق الجذور. فات أوان الحب يا سمية. هذا القلب الغض أوجعته الأحزان. فى العينين خضرة داكنة. وحتى اللحظة أشعر معك بالرهبة. أصداء تراتيل جنائزية

تعرقل خطواتى. الشوارع خاوية. المخابز وحدها تعمل وعدة مقاه. أحس معك بالحب منكسرا. أهبط بشفتى على شعرك العتمة المنسدل فى نعومة. تعنفنى الطيور البحرية التى حطت على الأطراف المدببة للسور الحديدى المصمت، «قبلنى».

إنه لعبث أن أحتضنك، واليد خاوية إلا من عروق نافرة، «قبلنى». أهرب من تلك اللحظة التى يخفت فيها شعورى بالأمان. أفزع. أمد يدى إلى جيب سترتى بحثا عن التصريح بالخاتم الكودى المثلث. الرقم العسكرى. كتيبة ١٨ مشاة جندى مؤهلات... سوف أقبلك وآخذ يدك. وأشعر بدفئك. أتمنى لك أجمل الأغانى، ونعيد طلاء النوافذ بلون أكثر بهجة. لكن ذلك الخلاء والبيادة التى تثقل خطواتى، وقايش الوسط، والشمس اللعينة التى دبغتنى، تسللت إلى مسام جلدى، غزت خلاياى. قهرتنى. أنت وردة بيضاء تكتنز بالرغبة. لكنى رأيت جثته فى العراء، والحدآت تحوم فوقها، وتمزقها نتفا صغيرة صغيرة. ولأن القطارات مرت فوق صدرى ومزقتنى. فإننى لا أستطيع أن أضحك الآن... قبلنى.. قبلنى.

قامت غاضبة. تبعتها دون أن أنبس. حين جلسنا فى المقهى طلبت فنجال القهوة سكر زيادة. جربت: «سمية. إنها لعبة رومانتيكية قديمة. نحن نفتعل الحزن. ما الذى ينقصنا. منزل ووطن؟!.. هيا نبكى. نمارس الحزن». كانت دموعها تنحدر على وجنتيها بالفعل. وكنت أحس بحزنها. لم تقل قبلنى. احتضنتها واستكانت. كان قلبى فرحا ومهموما. نداء هادر مرتعش. قبلتها. مزقت التصريح بيدى. كورته ورميته فى وجه الريح. سمية. يا أجمل الأسماء التى عرفتها. السماء الآن صارت صافية. والنوارس الشاهقة البياض تعود إلى الماء تستقر فوقه تتفا من ثلج.

لم تستقر أمى على رأى. قالت للأسطى عوض أنها تريد أن تعلمنى صنعة. وبعد يومين أعادتنى إلى مقعدى بالمدرسة. قالت لى فى الليل وهى تحكم حولى الغطاء، وإخوتى يغطون فى نومهم: «أريدك كاتبا كبيرا. وأعرف أنك ستحقق أملى»!!

ضغطت بيدى على جرس الباب. سمعت أصواتا أعرفها. كانت الشلة قد سبقتنى. حلمى بدر، وقد اشتعل رأسه شيبا. احتضننى، حملنى وظل يدور بى فى الحجرة. الصفتى شتمنى كعادته. شد على يدى ورفض

أن يقبلنى: «نحن رجال. عيب عليكم». الرقيب عطوة كان اكثرنا وقارا. على حجره جلست بنت حلوة فى العاشرة: «ليست قبيحة مثلك يا عطوة!» قال: «هى مُنى»! «لكن أين جرجس؟» قبل أن يرد أحدهم شعرت به يخرج من خلف ستارة الصالون: «أهلا سعيد». استغرقتنى نشوة خالصة. تلك البهجة المستعرة، وذلك الشجن المطمور خلف ركام الأيام.

الدماء التى تسربت فى اكتوبر، والشجيرات التى رأيناها تنوح فى «سرابيوم» وقد اصفرت أوراقها والقت بالثمار مَرة قبل الحرب وقد عادت للاخضرار. قلت لجرجس يومها: «إننى أشعر بدبيب اقدامهم. فى اول الامر يأتون فرادى، ثم جماعات، ينوحون طيلة الليل فى أنين موجع. فى نوبة «الكينجى» ينوحون. يخترقون البرد والليل والأعوام. يقعون خارج الملجأ. فى وجوههم تعب وعلى هياكلهم بلل. أول الأمر ارتعبت. لكننى سرعان ما شاركتهم البكاء. لم أكن أجرؤ على أن احكى لسمية عن زياراتهم وبكائهم الموصول تحت ندى النجوم. يلتفون فى غبش الفجر، ويرحلون تاركين خناجرهم المدببة تنغرس فى قلبى. قلت لقائد الكتيبة حين طلبت مكتبا: «إنهم يتزايدون يوما بعد يوم. وأن أعدادا هائلة تجلس على

حافة القناة، تدلى أقدامها العارية فى المياه، وتواصل البكاء». ربت على كتفى، رد بعصبية: «محض أوهام». وكان تحت كرسيه قط أسود ضخم عرفته، وفزعت، كان يصاحبهم دائما، يهز ذيله، وتلمع عيناه بالضوء، لكنه لا يموء. قط لا يزورنى إلا فى «الكينجى»، يقف فى مواجهتى مقوسا ظهره. ناظرا بثبات للملاجئ والخوذ التى علقها أصحابها على القضبان الحديدية المقوسة وناموا.

سألنى فريد: «تزوجت سمية؟»

هزنى على بدر: «هل أصبح لك أولاد؟»

الصفتى اختصر الكلمات: «أتراك حققت حلمك القديم؟»

الرقيب عطوة راح يتحسس وجهى فى هدوء. علق على أسئلتهم: «سعيد الذى نعرفه مات». انقض جرجس عليهم: «لا تلعبوا معه لعبتكم القديمة.. سعيد يصعد سلمه.. أتركوه»: وكانوا ينوحون.. ..

(٤)

هو الموت يأتى مدببا وقاسيا كنصل لامع بارد لا يعرف المهادنة. هل مات سعيد حقا؟ أم أن الكلمات المنطوقة المرتعشة لا تخترق كبد الحقيقة؟

إذن اتركوه يصعد سلمه. حذارى أن تسقط الاركان وتتقوض الأعمدة. فى المعبد القديم أبكاه الصمت، واتساع البهو. حبات العرق البارد تتفصد على جبينه رهبة. عندما التصق ظهره بظهر سمية اخبرها بالذى رآه برقا وشهادة. قرب من وجهها قطعة المعدن الفضية القديمة وسألها: خمنى، ملك أم كتابة؟

ومـا الفـارق، والعطب أصـاب القلب. قـبلنى. هذا سلمى فلأصعده. ساعدونى يا رفاق الـ م. د.

لطمته الأم على وجهه. عندما فتحت باب السطح الخشبى الثقيل ورأته يحتضن البنت، وثوبها الباتستا الرخيص تشف من تحته بشرتها الوردية. قالت: «حرام يا سـعيـد.. حـرام يا بنى». ضـربتـه وهبطت السلم. خشونة حارقة انقبض لها قلبى. فهل آن للقلب الجريح أن يهدأ.

حين أرسله قـائد الكتـيبـة ليـحـصل على فـرقـة «القناصة» ثبت البندقـيـة فى تجـويف الكتف، وأوقف نفسه للحظة ثم حاذى سن نملة الذبابة بفتحة «الشيز» راصدا أسفل منتصف الشاخص. وهصر الزناد. أصاب الهدف تمام. حصل على شريطين وإجازة ثمان وأربعين ساعة.

غـواية أن يصـيـب هدفـه. الوردة البـيـضـاء تفـتـحت، وعلى المقـعـد الحـجـرى انحنى يقـرأ طالعـهـا. وسـمـيـة تضحك؛ العمر ممدود، والرزق موجود. أكملت؛ والطريق مسدود. مست قلبه تلك الجملة. هل هى نبوءة لحبهما الذى أورق وسط الحدائق المهجورة، والأرصفة المبتردة، ونوارس تخاف الزوارق.

هل هو اعتراف بالآمال الموؤدة. والاغتراب القسرى. مـرثية الأحـلام الهـشـة؟ شـعـرت بفـزعه؛ «لا تـاخـذ فـى بالك. كلمة أفلتت، لا تأبه لها..».

أخذه المعنى الحزين الخافت، وتلفت بحثا عن ملامح الوطن المغـتـرب؛ «سنحـارب والسونكى الذى يتدلى من قايش الوسط سيتطهر بالدم!»

نقطة دم تجمدت على وجهه الصارم. أسـفل شاربه الكث. رآه يجـوب شـوارع المدينة الخـرسـاء. يحـمل الحـقـيـبة الخـاوية. يشتم فى سره تجار المعـارض ذات الواجـهات الرخامـيـة. أخـيـرا حلق لحـيـتـه، ولم تفـارق العـينين نظرة اتهـام وإدانة. حين انفـضـوا من حـوله وتركوه ينام فى أحواش البيوت المتهدمة. جحظت عيناه أكثر؛ فى نوبة تفتـيش مفـاجـاة على الملاجئ اخـرجـوا أجهزة «الكيما» و فانلات الصوف والبطاطين الرمادية،

وأروانة الفـرد. قـال الصـول درويش للكومى: «عندك عجز فى الملابس الداخلية، وزيادة فى البيادات.. أرنيك ذنب » فى اليـوم الخـامس للحـرب كـاد الصـول درويش يُدفن، اخرجوه بصعوبة بالغة من حفرة المدفع، جذبوه من سترته حتى تمزقت. خرج من تحت الرمال يرتجف لم ينس الكومى أن يعلق ساخرا: «عندك ستره عجز يا صول »!

أن تكتسب أرضا جديدة، هذا معناه ببساطة أن تحفر فى الرمل من جـديد، وأن تموه مـوقـعك. أن تغطس فى الحفرة لتطهرها من الردم الناعم الأملس. قشعريرة بلا انقطاع تتلبسنى وخلفى العلم يرف فى طمـأنينة. نحن الذين غرسناه فى المكان الأعلى. «هل نرمم عـصر قديم ساقط أم نعيد البناء، ونرص مداميك جديدة. خبرنى يا سعيد؟».

كنت أعرف أن هـناك حدا فاصلا بين الحلم والواقع. هذا الانسياب المتدفق للمشاعر يخدشه التأمل.

فى اللحظات الصعبة كان جرجس يركع على ركبتيه، يصلى فى خشوع. يرسم صليبا مغبرا بالبارود، ورائحة الموت. كـأن الحـقيقة تنبت من أحشاء الفـزع والهدوء. توغلنا للشـرق، وانقطعت بعض الخطوط. نفـد الماء،

فأطل العطش موجعا. لم نفزع كما خيل إلينا. الدفء المكنون لم يعد من السهل رحيله. تكاثرت من حولنا المدرعات والدانات العمياء؛ بَم.. بَم.. لعبة الالتفاف والتطويق. ملك أم كتابة؟ لم يعد من اليسير أن تقامر وأنت فى المنطقة الحرام.

المقعد الحجرى هل يتحول إلى شاهد آخر على حب رومانسى عقيم. حب بلا بيت ولا يمنح الدفء.

خالتى فاطمة قالت على سرير الموت؛ «البيت. لا تبيعوه. ولا تسكنوا غريبا فيه. إياكم أن تدهسكم الأقدام الغليظة.» كنت أظنها تُخرف.

حين اشتد القصف واجهت لحظات الضعف بأن أنطق اسمها كتعويذة أواجه بها الزمن المراوغ. بَحت بالحب، صرخت فى الأرض الخلاء إلا من الحفر والخوذات المموهة ومواسير المدافع؛ سمية. كامل البصراطى تهلل وجهه، صرخ من ورائى؛ فاطمة. رمال وعلم يرفرف. وجنود فى مواقعهم ينقبون فى لحظات المواجهة عن جذور عشقهم للحياة. بصعوبة نطق الرقيب عطوة؛ «يا.. أم.. منى!». طوحت الريح أصواتنا جهة الشمال. شوارع مبللة بالندى والمقعد الصخرى

نبت على قوائمه عشب أخضر. تحرك لسانها: «بيتنا لا يسكنه غريب!»

قدمت بثينة أكواب الشاى وجلست معنا: «الاسماعيلية نوّرت » صمتنا كنا جميعا مثقلين بالتعب. نحدق فى اللاشئ. للحرب أوجاعها ، وللحزن رجاله. حتى الصفتى رأيت منظره يبعث على الرثاء. قلت: هيا بنا إلى مقهى الحاج عليوه. تركنا منى بالمنزل. حين دخلنا كان يجلس على مقعده العريض بمعطفه الرمادى. رآنا فدعك عينيه. بُهت: أولادى. ضمنا إلى صدره: شاى وشيشة يا ولد. الطولات الخشبية متناثرة، ومجموعات الشباب تلعب الورق بلا حماس. أتى الصبى بالشاى . سألنى الحاج عليوه: «سكر خفيف؟» هززت رأسى مؤمنا لم يتغير صوته المبحوح ونوبات السعال المتكررة، ربت عى كتفى: «مالك؟»

ضحكت: «المدينة تغيرت». لم أزد. نفذت إلى خياشيمى رائحة نفاذة لخشب الورد القديم. والمرايا المعلقة تلتقط أقدام العابرين. نواصى الشوارع مكتظة بالشباب. فتيات رشيقات يسرن فى دلال. كلمات مصقولة. ضحكات من القلب هل كبرنا كل هذا؟ نعم. للحزن رجاله. هل أثقلتنا الأحزان بالمرارة؟ قمنا نجوب

شوارع المدينة التى عرفناها غارقة فى الضوء الخافت. الأدوار الواطئة النظيفة، مساحات الخضرة الزاهية، فترينات الزجاج المصقول. تحف وأنتيكات ولعب أطفال. رائحة البارود لا أثر لها. سألنى جرجس: «مدينة كنا نصاحبها وحدنا؟» اخذته من يده. سبقت الرفاق. سألته فى إلحاح: «هل أفسدتنا الحرب، وأثقلت القلب بالأوجاع؟».

(٥)

كان حبيسنا. آن له أن ينطلق. يزقزق للوردة البيضاء، المتضرجة بالرقة. تنسل فى الليل صرخاتنا المكتومة، والغبار يملأ الحلق، وهدير المجنزرات لا ينقطع. عصفور الانتشاء قلق ومحير.

رغبة محمومة أن أرفع قبضتى فى وجه الفضاء المرتعش بأصوات الانفجارات. قنابل الهاون المضيئة تسطع فى الليل. تذكرت مطاردتى للفراشات الملونة فى طفولتى. قمر أردت أن أقبض عليه بيدى. استحم بالرمال والبارود، أتطهر فى الصعب. انفتح باب للاعتناق. بانت خلفه زهور برية بيضاء. فلماذا يحوطنى الرمادى البليد ويغزو قلبى الأسود؟

سألنى فريد متوجسا، «انت بخير». لبرهة حلت ظلمة حالكة. ليل وفوانيسه زرقاء. تشعبت فى صدرى. ضغطت بيدى أرنبة أنفى. هززت راسى: «صداع ويزول» كانت كتيبتنا تتقهر عائدة إلى الدفرسوار، فى مواجهة النقطة الحصينة، وكان القصف مركزا على الجانب الأيسر للفرقة السادسة عشر. رفض كامل البصراطى فى البداية فكرة العودة، «لن يجبرونا على الانسحاب!».

كان الحديث معه بلا جدوى. نظمنا صفوفنا، علمنا بالثغرة، وتسلل دبابات «السنتريون» العملاقة إلى «جناين» الاسماعيلية. وكان علينا عبء التصدى لتلك القوات. بقيت كتائب وسرايا المشاة والهاون والـ م. ط. وعبرنا عائدين. الخطوط الآن متداخلة. والقصف العشوائى. عبر الظلام تخترق قوات الصاعقة مناطق التسلل. عاد معنا البصراطى مُجبرا. قبل أن يجر المدفع على عجلاته، تاركا خطوطا طولية محفورة بعمق ارض الموقع الذى قمنا بإخلائه. بكى فى الخلاء، «انا صياد. وأعرف أن العودة بلا رزق أمر مؤلم».

طيب الصفتى خاطره، «هى الأوامر على كل حال». بدأ التعامل مع الدبابات بحذر. هناك صعوبة فى

التعيينات. رفع حلمى بدر صوته: «نريد خبزا وماء!»
عاجله الرقيب عطوة: «وذخيرة!!».

لم تكن مواقعنا القديمة بالدفرسوار على حالها: فوضى هائلة، وشجيرات التوت متفحمة، والبئر القديم لم يعد له وجود، وعنزات مذعورات تلتصق باكياس الرمال، وأشجار المانجو مثقلة بالثمار. وحين يتوالى القصف تمتلئ، حفرتنا ببعض منها يكسوها الغبار والتراب والترقب!

استوقفنا شاب يسأل عن شارع ٦ اكتوبر. فقلنا له: «نحن أغراب». أشرنا لفريد الكومى. قال انه لا يعرفه بالرغم من أنه يقطن المدينة. بانت التجاعيد فى وجهه. وانعكس حزنه المفاجئ على نبرات صوته. سألنى: «لماذا تركت سمية؟». قلت: «صادفتنا متاعب جمة. ولم نصمد لمشاكل الحياة. كانت خطبة قصيرة انتهت بخصومة أبدية».

تلون وجهه بالحيرة: «لكن المقعد الصخرى، وأيام التهجير، وزيارتها لك بالاسماعيلية، صورتها فى جيب سترتك، اسمها الذى تردد فى وقت الصعب و.....»
بيدى أوقفت حديثه: «كانت تحلم بشبابيك برتقالية،

وستائر منقوشة. ولم أستطع وقتها أن أوفر مسكنا بالطوب الاحمر».

أمسكنى من معصمى: « كنت تحبها؟ ». نطقت بصعوبة بالغة: «كنت». قال: «لماذا لم تسافر.؟ حصولك على عقد عمل ليس معضلة . قلت مهموما: «لم أحاول». عاد يتمتم وكأنه يحدث نفسه: «كنت تحبها!».

«وأحببت الوطن، وحاربت من أجل ملامحه التى أعرفها جيدا. انغرست فى عنقى النباتات الشوكية. تمزقت أضلعى والرفاق يعرفون. لكن ثمة أقبية مظلمة نضطر لدخولها رغما عنا. نحنى الظهر ونحن نعبرها قسرا. أقبية مظلمة تسكنها الخفافيش. أتذكر طلعة الطيران الأخيرة والمنشورات التى طالبتنا برفع الرايات البيضاء؟ لقد حاربنا حتى النفس الأخير. وكامل البصراطى صرعته طلقات الفيكرز فى حقل المانجو. أنت تعرف كيف دفناه. ولماذا لم نبك وقتها؟ كان الاختيار الآخر أن يعود العصفور إلى قفصه. وتذبل أوراق الوردة. وترجع القشرة الصلدة تخفى دمامات آلاف الأعوام من القهر. لقد انعتقنا، أو خيل إلينا ذلك! وسمية التى تعرفها لم تعد هى. فى سنوات الصعب كانت معى. أعترف. لكن عندما انتهى كل شئ على

حافة الموقع ضاعت إلى الأبد. تريد الرهان. تجرب حظك معى، ملك أم كتابة؟! لا مكان فى عصرنا لأى كتابة. الأبجدية لا معنى لها فى العصر الردئ.

تعالى يا صفتى. اكشف كتفك، وأرنى جرحك. من من المارة يعرف أنك حاربت وسقطت وكدت تُدفن هناك. حيث لا نبات يظلل جسدك إن مُت.»

قاطعنى جرجس: «لا تحول اليوم إلى كرب.». سألنى فريد الكومى: «هيا. نذهب إلى الدفرسوار نقرأ الفاتحة على روح كامل البصراطى. كنا نتأرجح فى سيارة ميكروباس. وصوت مطرب مبحوح يصرخ معاتبا الدنيا فهى زحمة وبلا رحمة!

ننزل ببطء. نسير على أقدامنا فى طريق متعرج ترابى، ونشاهد أشجار المانجو على البعد، وعندما نقترب ونواجه الموقع تماما. الموقع الذى سقط فيه كامل البصراطى. نجد طائر نورس وحيد يرف حول المكان فى حيرة. يحط فى هدوء على الفرع اليابس لشجرة توت جرداء.

رماد أزمنة ماضية

(قصص هذا القسم كتبت فى الفترة من سنة ١٩٩١ إلى سنة ١٩٩٥)

اشتعال

إنه الدور الأبله الذى كنت أؤديه على الدوام. لم يكلفنى كثيرا أن أحضر وردة مضرجة بالحمرة، وأن أقف فى الشرفة متأملا نجمة بعيدة. غيمة تعبر فى هدوء، فتحجب القمر رويدا رويدا.

جاءت وأحكمت غلق النوافذ. كان وجه الطفل جميلا. ابتسامته بلون الرماد المتبقى بعد حريق قارة بأكملها. وقفت تجفف يدها بمنشفة بنية. سألت دون اكتراث، ما بك؟ كان فستانها مزركشا. أربعون عاما قد انسلت وسحبت معها كل الأفراح الصغيرة.

يوليو يخلع أثوابه. وأنا فى شبكة العنكبوت أصارعهم. بدوا مقبلين نحوى، شاهرى الرشاشات. لم يكن لهم هيئة جنود الحراسات. تأكدت أن المخطوطة فى مكانها الأمين تحت السجادة. مررت بأصابعى على الرموز الفرعونية. طرقوا الباب ودخلوا بعد أن سمعت حركة سحب الأجزاء. وقفت من خلفى وكانت الظلمة تغطينا. لا يزال لون البنفسج عالقا في الفضاء. أى نوع من البنفسج؟ إنه ذلك القديم الذى أولع به الأجداد فى

اصطيادهم للرونق. طربوش صالح عبد الحى يهتز بإيقاع بندولى.

مرت فراشة مرقطة الجناحين، اقتربت من المصباح، دخلت دائرة الاحتراق. قالت لى وهى تجس جبهتى: انت مريض؟!

كنت فى حاجة إلى أن أذهب إلى المستشفى. أريد أن أبتلع كل مسكنات العالم. لأن الشوارع التى اخضرت أوراق أشجارها رأيتها فى العودة بلا لون تقريبا. كاد قلبى أن يذوب وهنا. اكتشفت أننى عشت مخدوعا كل هذه الأعوام. الحلكة لها قعقعة حرب أخيرة. وأنا المنهزم الوحيد: لاشئ.. أنا بخير!

الحوانيت أسفل المنزل المقابل. تضوى الستائر وأنا أرقب حركة من الداخل. كانوا يتحركون بعصبية. رمقت عينى الشرايين، والدم يخب فى انحداره صوب القلب. كان شديد القتامة. دم يتلكأ لكن فى الاتجاه الصحيح. شعرت بحاجتى إلى المستشفى. كان النيل بعيدا جدا. ولاتنى تعبر عن استيائها لأننى أفسدت الليلة. حين أتوا فى جلبة صاخبين، تأكدت أننى لم أكن أخرف. أغرب شئ أنها وقفت على طرف السجادة ولم تتزحزح، حين كانوا يقلبون المكان رأسا على عقب بحثا عن المخطوطة.

حين لكزنى كبيرهم فى كتفى، وصفقوا الباب خلفهم فى غضب منصرفين. كانت استدارتها لها أكثر من معنى.

ربما ذكرتنى بسوسنة تغرق فى صفاء ترقرق.

حين أحطتَ وجهها بكفىَ المرتعدتين كان جسدها ينتفض. وكان أن تهيأت للاشتعال من جديد دون أن أعبء برماد أزمنة ماضية.

انفصال

كان قد غضب غضبا تاما من كل ما رآه. أصبح يحتاج إلى آلاف البنايات المصمتة ذات الأبواب العالية. يحتاج إلى صبار يتوحد بشوكه ولا يهاب وخزه. حقا لقد تركوه فى دوامة الزحام وحيدا. حين تلفت حوله كانوا قد سحبوا نهره أسيرا. رآه يرسف فى أغلاله ويئن. تلك نبرة يعرفها تمام المعرفة. وكان يحتاج إلى رداء يستتر به جزءا من خزيه. رداء أسود أو كحلى النسيج. لا يهم لماذا اختارهذين اللونين؟ لقد كان اختياره فى البداية أن يذهب معهم، أن يندس وسطهم ويصدح صوته بترانيم رآها غامضة، لكنها لم تفقد سحرها تماما. حين تسربلت الأجساد بالدم. حين بطشوا باليمام بكى وراء جدار عزلته. ماذا يقول اليمام فى أقفاصه الحديدية؟

نقطة سوداء صغيرة ظهرت فى ملتحمة العين. قال الطبيب وهو يفحصه بعدسته الدقيقة: اشتباه بانفصال فى الشبكية.

قالت زوجته: لا طريق سوى الانفصال. وحين ظهر

على شاشة التلفاز برأسه المجللة بالشيب رفض أن يعترف بالانفصال. وكان صوته يرتجف من مرارة ما حدث.

أما هو - الموظف البائس بقلم الحسابات - ذو السترة الوحيدة والمعطف المتهدل من اكتافه فقد احتفظ فى أرشيفه بكل الصور التى قصها من الصحف. كانت له عدسته الخاصة، وبها التقط صورة الدهماء وهم يشعلون سيارة المطافئ. أخفاها عن أعين الغرباء ولم يظهرها إلا بعد سنوات. وكان فخورا لأنها صورة نادرة لحادث يندر أن يتكرر.

إذ أن الضابط حين كان يجدف بقاربه على صفحة النهر مترنما بأغنية لعبدالحليم حافظ رأى الصياد العجوز ينحنى يلملم شباكه. قطع أغنيته ولا يدرى هل احتبس صوته نتيجة تردده أم خوفا من أن يفقد هيبته أمام حسنائه الفاتنة. لمس بأطراف أصابعه نجماته النحاسية على كتفه الأيسر. وصرخ كأنه فى مواجهة فيلق من الغزاة: قف. لا تتحرك. إندهشت الخطيبة لنبرته المرتعشة، جذبته من يده. لكنه صرخ ثانية بصورة أكثر وحشية: تقدم رافعا يديك. كان يريد أن يهوشه لا أكثر. يبدو أن الصياد كان منهمكا فى تخليص شبكته

من بعض أسماك فلم يسمع الأمر الصارم. لم يسمع الا صوت إطلاق النار. وهوى.

انفجرت المدينة. دَمرت البنايات المصمتة. هُشمت الواح الزجاج، وسقطت اللوريات فى قاع النيل. ذهب لأمه يخفى جرمه. صوته النحيل مشروخ. أعدت أطباق المحشى، وسألت عن الابن الاكبر. لم يخبرها أنه يقود مظاهرة فى الشارع الرئيسى، وأن المخبرين جادون فى البحث عنه. شعرت بالأمر الجلل من نظرات عينيه. لم تمس يد ما فى الأطباق. صعدت الأم وصفعت الولد الكبير فور رؤيته. نزعت قميصه، أشعلت فيه النار. كانت غاضبة أن يضيعوا من بين أصابعها كذرات رمل.

والنقطة السوداء تتحرك فى عينه وتجعله يرى البرتقالة اثنتين لم يكن قد ركّب عدسات بعد. مضى يضرب فى الطرقات يقرأ اللافتات ويفككها أحرفا يبعثرها كيفما اتفق. قالت له وهى تعيد له أساوره الذهبية وخاتمه الرخيص: ابتعد عن طريقى.

ابتعدت واخذت معها رونق الأيام الخوالى، وانفجرت هناء تبكى وهى ترتدى معطف الطب الأبيض، تقول له إذهب عنى. ماذا تريد؟ كان قلبها يرتجف وفى عينيها وميض حب يشرف على الاحتضار. يشعر بمأساة

الجماجم التى طقطقت تحت المجنزرات واللوارى فى الليل يسمع صوت التحطيم فى خفوت.

ذهب إلى المستشفى وتمدد دون أن يخلع حذائه. جعله يسرد نتفا من ذكرياته. لم يكن هناك شئ يستحق أن يقوله، خيبات وهزائم وزهو قليل وحب منكسر، ثم مكتب صغير فى غرفة رطبة مهملة. مئات الملفات تخرج من احشائها أوراقا مهترئة، وراتب لا يكفى ثمن السجائر، وإيجار غرفة أرضية لا توجد بها سوى نافذة تطل على أرض خراب. أرض بها حصى، وكلاب ضالة، وسحالى تمرق من تحت أوراق الشجر الجافة، وخطابات قديمة ممزقة. قلدوه النوط، وظهر اسمه فى ثلاث صحف صباحية ببنط صغير. ظل محتفظا بالقصاصة حتى سَرقت حافظة أوراقه مع مبلغ نقدى كبير حين كان فى زيارة مسجد الحسين.

قال له الطبيب النحيف العصبى وهو يسعل: لو استمرات ذلك الضعف فأنت فى طريقك للاصابة بانفصام فى الشخصية.

أصحيح هذا؟ أيختفى النهر؟

كان سؤالا يؤرقه على كل حال. الشئ الذى خشى معه على روحه ذهب إلى النهر كما كان يفعل كل مساء.

وجلس على المقعد الحجرى البيضاوى واشترى من بائع الترمس قرطاسا صغيرا. وحين راح (يقزقز) الحبات ويرمى القشر المستدير المتآكل من أطرافه على العشب الأخضر المترب لم يجد أمامه نهرا.

كانت هناك أحجار مرصوفة. أحجار رصاصية اللون، خرساء، كابية، لا روح فيها. لا فتحات. لا مداخل. لا أبواب.

ولقد ذهبوا به إلى المستشفى، أدخلوه قسم الاستقبال على نقالة بعجلات. كانت رائحة المطهر تملأ خياشيمه. الشئ الذى أصابهم بالحيرة، أيعالجونه من الانفصال أولا أم من الانفصام؟

منذ عام

كانا كبيرين، مستديرين، ضاربين إلى السواد الفاحم. شفاه غليظة لا تعرف الابتسام، من بين الأحبال المشدودة والأوتاد المغروسة فى فوضى، ورائحة الخراف النتنة. أمكن أن يبصرهما أسودان، واستدارة هائلة لها بريق لا ينطفئ. تحسس بيده ألم المنكب. أضلاعه شبه محطمة من أثر السقوط المفاجئ. تدافعت الأيدى، بينما الأقدام تركض. لم يشعر إلا بارتطام جسده، ثم بيده يحركها بصعوبة بالغة. وقد كان معهم والأرض خشنة، وسادته فيها حصى وحجارة. حين أراد الماء تعثرت قدماه، وخزته أشواك جافة. تركها ومضى يعرج، والأجساد ممددة، متلاصقة، أما الشخير فيعلو، ويختلط بعادم السيارات التى تزحف كثعابين مدربة على الولوج من المنحدرات الضيقة.

أوجاع فى الكتف والأقدام والعقل، وكانا كبيرين، يفضحان كل شئ من حولهما، وهى تنظر بكل التحدى، والرائحة تزكم الأنوف، وحرارة الشمس تدبغ الجلود.

الأجساد ممددة. معركة حربية صامتة بين خصمين غير متكافئين.

انبرى بسيفه الخشبى ممتطيا خروفا كسولا. ضرب ذات اليمين، وذات اليسار فانشطر قلبه، وماما الحيوان قبل أن يصيبه الخرس بفعل السكين.

وكانت كل النصال تشحذ والسماء رمادية، لها انطباقة مخيفة. كان يشعربنفسه غريبا ووحيدا وخارج نطاق ذلك العالم الغريب.

لم يكن إحساسا بالحنق أو بالفزع أو بالغضب بل بكاء قاس يخنقه، لأنه يكره أن تدمى قدميه الأشواك، ويكره نوم الحصى، والأشياء التى كان يحبها تراجعت إلى البعيد. صارت مجرد سراب فى صحراء قاحلة. رطب جوفه بجرعة ماء باردة، وتلاها بجرعات تلو جرعات. حتى امتلأ بالماء. أراد أن يكون النهر أو البحر. وعلى صدره مضت سفن لها أشرعة بيضاء، وثمة نوارس تحلق بوداعة.

فى ومضة لمع السكين وطعن القلب. لم ينزف دما بل دولارات خضراء..

انسكبت حول أوراقه وكتبه دولارات زائفة عرفها فى لحظة الاحتضار بملمسها الذى دربه عليه صراف البنك.

كانت الطيور الخضراء التى تقف كل صباح على أحبال الغسيل تحط على جسده، وتنقر فى لطف فروة الرأس.

مازالت حنجرته مبحوحة لا يخرج منها أقل صوت. جاءت بردائها الفستقى وأحاطت بيديها وجهه. أدركت أن الشيب قد غزا الرأس وكانت تنتحب فى هدوء يليق بها. ثم أنها أحضرت الدولارات فمزقتها. لم تكن تعرف أنها زائفة. لكنها مزقتها على كل حال. ونزلت سلمها المطل على النيل فملأت الوعاء الفخارى القديم. وعاء (ماعت) وصبته على الجسد، والخوص عرشت به سريرهما الذى هجره منذ عام.

نفق

استطاب له العيش فى الطرقات، ودفعته ظروف المحنة أن يدخل هذا النفق المظلم. راح يحمل حجارة خشنة ويدفعها أمامه من خلال ثقب صغير إلى آخر الحجرة التى أعمت بصره من شدة العتمة.

فى بداية الأمر وخزته الأسلاك، وادمت أطرافه النتوءات الكثيرة ولم يستطع أن يبصر شيئا.

حين تكاثرت الجروح وتصاعد أنينه خافتا أمكنه أن يرى بصيصا من نور. لم يكن وحده الذى يفعل ذلك. كان آخرون يشاركونه فعلته. دمهم ينزف مثله. يبتلعون كثيرا من دموعهم المدرارة، لكنه وحده الذى كان يمتلك الجراة أن يئن. هذا أنينه المتقطع يتصاعد من خلال الثقب، وصدره ينضغط، يُبطط. فى كل مرة. ورقاع الورق تاتى إليه بالخاتم المستدير. لا يمكنه أن يقرا فى مثل هذا الضوء. يحلم بتلك الطرقات التى هجرها، بالأضواء والأماكن الفسيحة. ليس نفقا ولا قبوا ولا قبرا. لكنه مكان مظلم إظلاما يكاد أن يكون تاما. أغرب شئ أمكنه أن يراه نظرة الرضا التى كانت تشع

بها عيون أصحاب النفق. كانوا فى غاية الاطمئنان. حجارتهم الهتهم عن إشياء كثيرة. ودّ أن يحدثهم عن فسحة السماء الزرقاء، أو يغنى لهم، للحدائق الخضراء الزاهية وطيورها المغردة. رأى فى عيونهم إصرارًا على المضى فى ذات الطريق. كانت ثمة ثغرات هنا وهناك لكنها قليلة. وكانت للعصافير رفرفة أجنحة غاية فى الضآلة واوجع قلبه أن يرى الزحام فى اتجاه النفق، والأحجار تتراص وتتكوم فى كل ركن حتى أنها طمرت بعض الأجساد البشرية.

وحمامة سوداء الجناحين والعنق مرقت من فتحة ضيقة ثم هدلت، وارتمت ميتة، والريش مدبب على شكل مروحة.

صارت الحجارة تملأ الأركان، وكان يرى الأجساد تنضغط فى قسوة وتقاوم دونما أمل. أزعجه أن يصمت، ولم يكن يمتلك الشجاعة ليصرخ. وجع فى قلبه يتمدد، حاول أن يعرف الوقت، فصرخ صرخته الوحيدة.. حين رأى العقربين الحديديين لساعته يتحولان إلى عقربين حيين يلدغان.

مضى وقت الاختيار. لم يكن أمامه إلا محاولة العودة إلى الطرقات. حيث الشمس والهواء والأمطار والرياح.

حيث ضجيج الباعة وشتائم المتخاصمين، وضحكات الصغار.

فى طريق عودته اكتشف انه صار مسخا. راسه مبططة مثل سحلية ماكرة، وعينان جاحظتان تدوران فى المحاجر، وأطراف شائهة وجلد مبرقش، ناعم من تأثير الزحف اليومى على الحصى. مضى إلى غايته وهو يعلم أن الموت يترصده هنا أو هناك. ودّ أن تتحول روحه إلى ذرات من رماد قد تخصب الأرض التى تطلع عليها شمس وتسقط فوقها أمطار، بعيدا عن النفق..

فول نابت

نجوى وليلى وعلا ثلاث بنات كن يقفن فوق سطح بيتهن ضاحكات مسرورات، يتلاعب بشعرهن الهواء، وكن بضات البشرة. فإذا ما تلاعب النسيم بقلوبهن أمكننى أن أرى شفاههن تنفرج عن ابتسامة تمسح كل أحزان الدنيا. أنا الطفل الذى تضربه أمه مع مطلع كل شمس ومغربها. أمكننى من سطح منزلى أن أرى السماء زرقاء شاهقة الزرقة مزدانة بطيارات ورقية مزخرفة. كانت التنورات المزركشة بالزهور الحمراء دائما تتطاير فالبد فى مكمنى، وأنفاسى تكرشها الزفرات. ولم أكن أعرف ماذا يحدث بالضبط لى ولهنّ، لأن الزمن كان بعيدا ومغبشا.

ترسلنى أمى لأحضر قرطاس الأرز بصاغ ونصف، وأبيع سبع بيضات بقرش تعريفة. هن غنيات مترفات ونحن فقراء - على الحديدة - لكننا سعداء. من يأكل لحم الديوك الرومى، ومن يجرش حبات الفول النابت مثلنا قبل سلقها.

كانت أمى تصادق أمهن، وكانت ترسلنى لأحضر الماء

المثلج، وأقف وراء الباب الموارب انظر لابتسامتهن عن قرب. يقلن لى: ما بك؟ تفضل. ادخل. أهز رأسى دون أن أنبس أن لا. وتعاقب الأسود والأبيض، وكرت الأيام. إنهد بيتنا، وانتقلنا إلى بيت بالإيجار فى أطراف المدينة. بناتهن ليس لهن رقة هؤلاء البنات. نجحت ورسبت، تخرجت واستلمت وظيفتى وقبلها انهزمنا فى حرب، وشهدت جثث اليهود يخرجونها من حفر فى «أبى وقفة » بعد تجنيدى بعد حرب أخرى لم اخضها.

دخلت بعد دوامة السنوات أصافح حلاق حينا القديم، كان لا زال بمراياه المغبشة وزبائنة القليلة. يعرفنى ويترحم دائما على أبى.

كنت أريد أن أسأل عنهن بالذات، صمت وصمت. أشرت بيدى إلى المنزل البديع أيام زمان، لقد تهدمت واجهته وطمس البلى ملامحه. ليس رثاء لأطلال يا عم عبده. الباقية فى حياتك.

تزوجت علا طبيبا زميلا لها ورحلت إلى القاهرة لتعمل معيدة بكبرى جامعاتها،وانقطعت منذ سنوات عن زيارة بلدتها. وليلى الحسناء تزوجت مخرجا سينمائيا دهمته سيارة جيش فى طريق فاقوس الزراعى وهو يختار أماكن تصوير فيلمه الجديد، تاركا أرملته تخب

فى الأسود الذى كانت لا تحبه ولاتطيق أن تراه.

أما نجوى فقد أسعدها الحظ بزواجها من تاجر موبيليات شهير أسكنها فسيح قصره، وأحضر لها من عمرته بالحجاز سجادة شيرازى تغوص بها الأقدام، وخلاط كهربائى، ومرغها فى الحرير.

لكنها قامت ليلا لتدخل الحمام فوجدته ممددا على مقعد «الأنتريه»، هزته، فوجدته فارق الحياة. مات وتدلت يده بجوار أسلاك التليفون. مات زوجان وبقى زوج. أما سطح منزلهن الذى شهد ضحكاتهن فقد غط فى صمت كئيب. حتى الديوك الرومية التى كانت تسير فى ركن فيه بكل زهو فقد راحت أيامها.

ورأت أختى محاسن الشقية إحدى الأرملتين تشترى من تاجر حبوب قرب مدرستها أكياس الفول النابت، أما الأرملة الأخرى فقد كانت تفحص البيض قبل أن تشتريه وتساوم فى ثمنه مثلما تفعل أمى!

ضجيج

الغريب أنهم فتشوه تلك الليلة -على غير العادة - قبل أن يسمحوا له بالمرور. كانت المتاريس متناثرة هنا وهناك، وعوائق الدبابات الحديدية فى تقاطعها العجيب، رغم أن الحرب انتهت، والساحل يشهق فى زرقة. حين تحط طيور النورس على الزوارق المعطوبة يسعل بقوة. لقد حلت السكينة فى نفسه. بدوا وجلين. كانت الموسيقى على أشدها.آلات نحاسية يُنفخ فيها. يظن أن العروق نافرة، لاينى ينظر خلفه. لقد رشقوا الطرقات برجالهم. كانوا قصار القامة، مهدودين، يقلبون البصر فى توجس. ولقد بللت الدموع وجنتيه، انحدرت فى رفق، ولما امتصها فى عطش كان لها طعم الملح.

رأى الرمال تغطى السعف الأخضر، وسراطين صغيرة تقاوم الأمواج، وتتشبث ببقايا صخور ناتئة. عبر الطريق المعوج أتته الرياح بحفيفها الغامض. جاء صاغرا، تركوه يعبر ممتنين. كان بمفرده . الحفل يمارس صخبه. يود أن يتمدد قليلا. يمكنه أن يحلم

مثلما كان يفعل بعد أن تنتهى نوبات الحراسة. ياله من برد يختــرق العظام. وهو الآن آمن. لا نهـاية لذلك الضجيج الذى يتوالد بداخله.

هل للخـريف فى قلبـه مـواسم، وأقـبـيـة، وأوراق مجهولة؟ الراحلون والعائدون يمضون عبر طريق آخر. الشواهد صامتة، رغم بعدها فقد بدت له قريبة.. أخلوا سـيـارته من الأغـراض. فـتـشـوا المقـاعـد، والأركـان، وانتزعوا المفكات وكل شئ له صلة بالحديد. لم تفصح عـيـونهم عن أى مـعنى. لقـد أرسلوا له بطاقـة وردية بحواف مذهبة. طلبوا منه أن يحضر الحفل وشددوا على أن يرتدى ملابسه الرسمية، ورابطة العنق.

فى أواخر سبتمبر خط بإصبعه البنصر خطا على الرمل، جاء الموج فمسح ما فعل. أعاد الخط بعمق أكثر، فترقرقت مياه الموجة، وتخللت الحبيبات، ولما انسحبت شربت القطرات حتى الثمالة. لم تترك سوى الرغوة.

رغـوة أم رغـبـة؟ لا فـرق. إذ جـاءوا الآن واقـتـادوه مـخـفـورا إلى مكان الاحـتـفـال كـان مـقـعـده فى آخـر الصفوف. بجوار الجدار السميك مباشرة. يصبح من الصعب أن يخرج سجائره. عليه أن ينتظر فإذا فعلوا فعل. وإذا امتنعوا امتنع. العربة الأولى التى مرت كانت

محملة بالقش، وبغل صغير في وسطها مقيد بحبل لا يكاد يُرى.

العربة الثانية كانت لذئب يلهث في إعياء، يحرك ذنبه، ويغرس أنيابه في الفتاة الدمية التي صنعت من مطاط.

ثالث العربات كانت تحمله - هو - بدمه ولحمه. لقد قرص ساقه خفية، مال إلى المسند وعض يده، لم يشعر بأي ألم. كان منزوع السترة يَضرب بسوط معقوف، والجلاد يمسح عرق جبينه ويضحك.

الموسيقى تصدح بصوت يغطى على صيحات الاعجاب، أما أضواء النيون فكانت تلهب وجهه. همّ بالوقوف محتدا. أجلسوه عنوة. كاد الحارس غليظ الشفتين أن يفتت عظام كتفه بدبشك بندقيته.

ولما لم يحتمل أن يرى نفسه منقسما ومفضوحا وفوق عربة.. بعد بغل وذئب جن جنونه. صرخ صرخة هائلة ضاعت هي الأخرى وسط الأصوات الهائلة. بداخله مراجل تغلى. اختلى بالقمر الأسود، وسأله أن يرفق بقلبه الضعيف، تحامل كي يصل إلى شعاع وحيد يهديه إلى المخرج. عبرت سحابة أمام القمر المختنق أصلا. وحين هم بالصراخ ثانية أطبق الحارس على حنجرته.

ما الذى سوف يحدث لو أنهم استمروا فى جلده؟

قبل أن تغيب العربة من الساحة قذف بنفسه، وشعر بالطلقات النارية تخترق ظهره. وسكون عميق يبدأ من القدمين ويزحف فى إصرار نحو الرأس، الصدغان بهما برودة والجذع قد تخشب. لقد صار الصوت الآن نصف ضجيج وعليه أن يعد العدة للرحيل صوب الشواهد:

رائحة

أضاف إلى عمره عشرة أعوام كاملة. بأن ترك الشعيرات البيضاء تتسلل إلى قلبه بعد أن عاثت فسادا فى رأسه. ولقد قرأ عن ذلك الرجل الذى دخل مخدعه فوجد رائحة كريهة تزكم الأنوف، فبحث تحت سريره، وفوق صيوانه، وفى الممر المفضى إلى الردهة، فلما لم يعثر على شئ. شئ محدد يريح قلبه ويهدأ عذاباته هزها من نومها، دفعها بيده لتنزل من فراشها. كانت مشعثة الشعر تحاول أن تفهم. أخبرها بإشارة من يده أن الرائحة لاتُطاق. وراحت تبحث معه، ثم أخذها التعب فنامت على أريكة سندسية بجوار الباب تماما. أما هو فقد واصل التفتيش، وأخيرا عثر على فردتى جورب لهما تلك الرائحة النفاذة الكريهة. لقد زاد غضبه، فأسرع إلى مطبخه واستل سكينا، وأمال رأسها ثم ذبحها. وللشرطة ذهب وسلّم نفسه كمتهم وشاهد أوحد. كانت السكين ما زالت تقطر دما. رغم أن الدم يتخثر فى الأحوال العادية، ويتجلط فور ملامسته النصل اللامع.

مساء ذلك اليوم البعيد المعتم كان كل شئ غريبا. لذلك فقد طرد عن فكره ذلك الهاجس فى أن يصبح مصيره حبل المشنقة أو الكرسى الكهربائى. قرأ عنه كثيرا فى الروايات العالمية ذات الترجمة السطحية التافهة فى الغالب - أو يد السياف التى تطيح الرأس بعيدا!!

كانت هناك - بالقرب من مخدعه - رائحة عطر فرنسى لا يُقاوم. عطر يدغدغ الحواس ويثير مكامن الفتنة، فى هذه المرة لم يسع إلى إيقاظها. فقط اقترب من الستائر التى كانت نسائم الليل الباردة تحركها، والدانتيلا البيضاء فى الأطراف تتماوج. بحث عن فردتى جورب فلم يعثر على شئ. بحث عن قميص أو سروال له بالذات. خلف استدارة المرآة المصقولة كانت الفردتان لهما ذلك العطر الفواح. ولأنه لم يقرأ أو يسمع - أويرى فى منامه على كثرة ما يرى - عن جوارب لها تلك الرائحة المنعشة فقد بدا الأمر كما لو كان مفاجأة له. صعقته بوضوحها المميت. وكانت تتقلب فى فراشها. وعلى غير ما هو شائع لم يذهب إلى المطبخ إذ كانت أداة الجريمة قريبة. ولها بريق الموت الخاطف. على حافة الطبق المرمرى الشاهق البياض

بوردته الحمراء كانت مستكينة وصماء. فى المنتصف تفاحة ناضجة، لعلها تفاحة واحدة لها سحر ونعومة الشرق. وللحرير الوان مفضضة اخاذة. تناولها بيد ليس فيها اقل ذرة ارتعاش، تاركا التفاحة بلا سكين.

بيده أمسك المقبض - وفى تلك اللحظة عرف لماذا منحوه هذه التسمية، وقد كان يجهلها رغم حصوله على درجات كاملة فى مادة الإنشاء - و التى سميت بعد قيام حركات التحرر بالتعبير- وتحسس برودة الصلب الأخرس المهين. لم تكن هناك فرصة لأن تقاوم. لقد ذبحها ولم يذهب أيضا إلى الشرطة فقد توقعوا كل شئ. وأتوا بسياراتهم ذات النفير المزعج المتقطع. حاصروا البيت الهادئ الوديع - العش الذى طالما حلم به، وحلمت بلون جدرانه الفسدقية - وسط سكون الليل. صعدوا الدرج. وجدوه فى مواجهة الجثة متماسكا على صدره وسام الاستحقاق الذى ناله فى تلك القاعة المستديرة تحت وميض العدسات المبهر. ولقد كان من المثير أن يواصل صمته طيلة مراحل التحقيق وعلى فمه نفس الابتسامة الساخرة التى كانت لسلفه قبل أن تزهق روحه إعداما. ابتسامة تفيض بالبسالة والذعر ونعومة الجيوكندا السوداء. وكانت

الرائحة لاتنى تطارده أينما تمدد أو انحنى أو قام أو مشى. رائحة لا يمكن احتمالها ولذلك فقد حذر طبيب السجن السلطات المسئولة أن يبعدوا من وجهه كل آلة أو أداة يمكنه أن يطعن بها الهواء أو الذكريات والغريب فى الأمر أنهم وجدوا فى بيته مئات الجوارب فى أكياسها دون أن تفتح. مئات الجوارب من كل لون ونوع وملمس مكدسة فى حقائب سوداء عديدة.

انتهاك

لقد انتهك كل شئ. شجرة الموز بأغصانها الخضراء العريضة التى رآها متدلية. مد يده، وقطعها. لم يجد صعوبة فى أن يضع غله فى تحويلها إلى مزق صغيرة. شعر أن تعرجاتها. وخيوط عروقها بماتحمل من عصارة تواجه فى التو هواء راكدا.

حين تقفز إلى ذهنه صورة الكورنيش، والبنات المشوقات رائحات غاديات يثرثرن وبين أصابعهن الرقيقة حبوب اللب و الفول السودانى، وقلوب شباب المدينة فى وقوفهم عند المنعطفات، يلوحون للفراغ بسلاسل مفاتيحهن الصدئة التى تلمع رغم كل شئ فى الضوء يتذكر أنه هو الآخر أنتهك...

حاول أن يرتب القصيدة، فناوءته الألفاظ، ونفرت من أمامه لا تلوى على شئ. وكانت الخطابات على طرف السرير مكتنزة بالآهات والحب المجفف فى حروف ملت الانتظار. إذ يسوى أطراف ملاءته البيضاء، ويضع وسادة صغيرة عليها شعر منحول مجعد يتأكد ان حيرته ستدوم طويلا وأنه سلم لهم كل أوراقه،، ولم تبق معه

سوى أقلامه المختلفة الأشكال والألوان. لديه الرغبة فى الكتابة لكن شئ فى صدره قد انطفأ. سيحوم فى فضاء الغرفة ويسترجع أسماء البنات. ويحاول ككل مرة أن يستعيد وجوههن، وسيفشل إذ تهبط العتمة رويدا رويدا، وتذوب الوجوه فى حلكة الليل. هل يمكنه أن يشترى قمرا؟

حين وصل إلى المقهى كانوا جالسين تحوطهم النوافذ الزجاجية القاتمة. كأنهم نباتات داخل صوب. كانوا يتحركون فى حذر. رفع يده فرفعوا أيديهم. حياهم بصوت ناحل ردوا عليه التحية باقتضاب مهين. بل زام بعضهم غضبا!

فاجاهم بأن خلع سترته ورقص بصدره العارى، فدفنوا وجوهم فى ماء النراجيل. لم يدر كيف ارتدى السترة ثانية، وصوت أجش يدخل من ثقب الباب ليدوى فى اذنه: أخرج... أخرج..

ليس بمقدوره أن يفعلها، يشعر أن أقدامه ثقيلة ثقيلة.

كنتَ حاضرا. أنا الذى مددت يدى بالسكين. فقطع شرايين يده، وفى تلك اللحظة قاموا كالمسحورين. رقصوا. وكان يئن فى مركز الدائرة، مثل صفر بلا ظل.

ينظر إلى الزوايا، يومئ برأسه أن انقذونى... أو اقتلونى.

لم يعرف أحد بالدقة ماذا كان يبغى. فقط جاء النادل ووضع على مقعده الخالى تفاحة خضراء. رأينا عصفورا من البللور، ريشه أصفر تخالطه زرقة. نقر نقرتين. وحين فتح أحدنا النافذة رفرف بجناحيه، وحط على الأوراق الكثيرة التى كان يخفيها أكبرنا تحت الكوب الزجاجى. لاأحد افتتن بالدم. العصفور هرب حين دقت الساعة. نظرت إلى معصمى. كانت عقاربى تتملص وكان الوقت ينزف، وأنا أشاركه الاحتضار.

قالت لى قبل أن أخرج: اترك نقودا.

قلت لها قبل أن أنام: أغلقى الراديو.

قال الأولاد: وقع هنا أمام الدوائر الحمراء.

المقهى قاتم الجدران. بلا صوت فقد أربكهم الموت الذى كان يقبل فى تكاسل غريب.

كانت حركة جفونه قد ثقلت تماما. وكان الدم قد راح يميل إلى الاسوداد. والأوراق التى وقعت نظرته الأخيرة عليها كانت خالية من كل كتابة. اكتشف أنه ينظر إلى أعلى. كنا فى صحن مكشوف. لم أدرك ذلك إلا الآن. والزخارف كانت تبخ زينتها، وتفح زخرفها.

هل كنت مخبولا حين غمست إصبعى السبابة فى السائل اللزج ولونت المنمنمات البديعة؟ إذن فقد جاءوا وحملوه.

سألته أن يترك لى أقلامه الجميلة، لكنه مضى دون أن يجيب.

أعرف أنه كان يملك القدرة على أن يومئ برأسه. لكنه لم يفعلها فبقيت فى مقعدى أخرسا. وكانوا قد عادوا يواصلون الرقص حول بقعة الدم التى تركها خلفه.

فلة

كان هذا اسمها، وكانت منكوشة الشعر دائما، مسرعة فى سيرها تحمل السلة فارغة تملأها بالخبز من فرن «السقا» الشهير .

مسحة خافتة من جمال كانت تخفيه بإهمال متعمد. سيدتها لم تجبرها على ذلك فهى ثرية وباذخة الجمال ، كما أنها صاحبة جاه،

لكنها رأت الشغالات فى العمارات المجاورة يفعلن ذلك، ففعلت مثلهن.

شىء واحد لفت نظرى فيها، حينما أراها ذاهبة الى محل البقالة أو الخضرى أو الجزار. إن عينيها.. تتسمران على مانشتات الصحف وتحرك شفتيها لتقرأ أخبارا يمكنها اختزانها فى عقلها الذكى. حين مات كانت ترتدى الأسود حزينه، وتسير فى الشارع بلا سلة تبكى نادبة حظها كأنه أبوها.

كانت فى تلك السنوات البعيدة تبدو كفلة بيضاء حقيقية محاطة بالستان الأسود .

أبرز اللون الحزين فتنتها. وجدتنى أبكى وهى تبكى مثلى والشوارع كلها تنتحب . كنت حافى القدمين.

وكانت تنتعل صندلا قديما بدا واسعا. بالتاكيد هو لسيدتها بسيوره الذهبيه المضفورة فى اناقة ملفته للنظر، بوردة جلدية سوداء تتوسطها بلورة ذهبية.

حين لمحت انحدار الدموع على وجنتيها، مددت يدى بمنديل صغير (بناتى) كانت أمى حريصة على أن تشبكه بدبوس داخل جيب بنطالى، مشغول فى طرف منه بوردة حمراء دقيقة لا تخفى على العين.

أخذته من يدى ممتنة ومسحت دموعها، وهى ترتجف. ولما مددت يدها كان الزحام قد أخذنى فى دوامة هائلة.

عصفت بنا السنون. ونسيت ذلك التاريخ كله، الليلة الحزينة، وثوبها الأسود. ومنديلى البناتى الصغير.

منذ عام ونصف رأيتها كما لم أرها من قبل سيدة انيقة، تسير برفقة زوج محترم يضع منظار طبى على وجهه.على الكورنيش يسيران فى أمسية صيف صافية . لاأعرف كيف عرفتها. وهى الأخرى تأملتنى فى ذهول بعد هذا الزمن الطويل الممتد. لم تكن ترتدى الأسود بل ثوب محتشم محلى بورود زرقاء فى أرضية خضراء زاهية. أما الأولاد فكل منهم كان يخرج من جيب بنطاله بين الحين والآخر منديل بناتى صغير مطرز بوردة حمراء دقيقة فى الطرف.

سوسن

كان يحب اسم هند، لذلك اختار أن تحمل زوجته اسم سوسن.

وكان يعرف أن أزهار السوسن التى لم يرها من قبل لها شكل جميل. إيقاع الحروف وتناغمها يدل على ذلك دلالة أكيدة. وحين سار على الشاطئ أبهجه أن يرى النوارس البيضاء تهبط على صفحة الماء فتبدو رائعة الجمال، وحين تطير يسمع رفيف أجنحتها. لقد أدرك أنها نتف من السحب القريبة الشاهقة البياض. نزل بصعوبة من مقعده ثم أنه خلع حذاءه. وتمدد على الرمال الدافئة. كانت الشمس تنزف حمرتها، وتصبغ الوجوه التى أغمض عينيه حتى لا يراها. لقد هيأت له نفسه أن يتمرد على تلك العلاقة الفاترة التى صارت مثل «دوسيه» تم حفظه فى الأرشيف . يحمل رقما وأوراقا تهرأت أطرافها. سعى إلى أن يستبدل عاطفة بأخرى ففشل. وراقبته وهو ينحنى ليلملم أمجاده فى صندوق المهملات الذى صعدت به فوق السطح. كانت قصائد بلا معنى تقريبا. مجرد ألفاظ مرصوصة لها

نفس الحروف المتآكلة الجهمة الحامضة. أحرف أقرب لتلك التى تُسمع من الباعة الجائلين فى مواقف الأتوبيسات، ومحطات القطارات. لكم أدهشته أن تأتى له فى عيد ميلاده بباقة ورد تضم فى المنتصف زهرة أشارت بسبابتها نحوها. نطقتها فى غل: سوسن.

كاد ينسى الأمر فى غمرة انشغاله الدائم. طبع قبلة حارة - كالفلفل الأسود- على وجنتيها، وكانت قبلة زوجية تخلو من أى معنى. أعطته خطابا وصله من صاحب قديم. ذلك الذى فقد ساقه وإصبعه البنصر على جبهة السويس فى الحرب قبل الأخيرة.

حين فضّ الظرف واجهته أسرة صغيرة، لم تفقد سوى ساق. ساق واحدة لا يؤبه لها، وإصبع البنصر فى اليد اليمنى. الولد الصغير كانت تحمله أمه، والبنت تعقص شعرها خلف رأسها. الكل يبتسم للمصور، أوله. رفيق الطاقم م/د، وحفرة المدفع، نوبات البرينجى والكينجى والشينجى. هل للأيام رائحة؟ ود أن يعود لتلك اللحظات التى يندفع فيها الدم إلى قمة الرأس وينسحب بهدوء للأطراف. اختطفت الصورة ومزقتها نصفين. مالك تحدق فيها هكذا؟!

لو فعلت هذا قبل عشرة أعوام، لأوسعها ضربا

وركلا. لكنه ابتسم واكمل تمزيق الصورة والرسالة ايضا قبل أن يقراها. وضعها مزقا جد صغيرة بكفه ونفخ فيها هواء زفيره الحار الملتهب فطارت الأوراق على المفرش وطرف المقعد والسجادة. حتى انها أُخذَتْ.

فبكت امامه بلا دموع. بكت بكاء حقيقيا إذ ان جسدها كان يهتز اهتزازا عنيفا.

وكانت فى تلك اللحظة بالذات تضع راسها على ركبتيه، وكان يرتجف توترا، وهو جالس فى مقعده ذى العجلات. ويحلم كما كان يفعل فى أيام شبابه بتلك الفتاة التى يمكن ان يكون اسمها هند؛

وداعا للدم... العقيق

نور يترقرق فى الساحة خلفى حيث الأحجار المنقوشة مبعثرة تفوح منها رائحة القدم، ينبجس داخلى فرح غامض رقيق، يعصف بى حلم يهدهدنى حين أراها قادمة نحوى أمد لها يدى، فيسرى فى جسدى ذلك النداء القديم. وحد السكين بان مرهفا وممتعا إلى درجة لا تحتمل. صحت بها وهى تسوى أطراف شعرها الذى تطيره ريح خفيفة؛ تاخرت.

ابتسمت وبدت الشوارع جاحدة، ودوامات من الريح تعصف باطراف الحديقة حيث الأوراق الصفراء المتساقطة جافة وخشنة.

كدت اقول لها أن روحى المجهدة قد تبعثرت فى انحاء الدنيا، وعليها أن تلملم الأشلاء وأن تسعى فى الأودية والمطارح لتبحث دون أن يشعر بها «ست »، لكنها ضحكت ضحكتها الطفولية وقالت لى أنها تخرج معى اليوم بعد تفكير عميق لم يحسم تلك الزوابع فى داخلها، فهى لاتعرف لماذا اختارتنى بالذات؟ البنات فى الكلية يغمضن أعينهن فى الليل ويتحدثن عن تلك

اللحظات التى يقابلن فيها رجالا وأن نداء غامضا ظل يلح عليها أن تأتى. مدت لى يدها فشعرت بها باردة مرتعدة. قلت لها : خففى عنك. الأمر فى غاية البساطة. هى تجربة تصلح لكلينا. هل أنت واثقة أن ذلك النداء الخفى كان يقصدنى أنا بالذات؟

هزت رأسها فى إيجاب. تندت عيناها بدمعة لها نداوة الصباح. أحكمت الإيشارب الأزرق حول عنقها. مدت يدها بالبطاقة الجامعية. تقدمت من الكشك فقطعت تذكرتين. تقدمتها من الباب الحديدى المشغول. كانت مطرقة الرأس. فى الممر المفضى إلى الصالة الواسعة لاحظنا أن النور مطفأ، لكن طاقة على يسار المدخل كانت ترسل نورا باهتا محايدا بلامعنى.

قلت لها: صفاء. ما الذى دفعك للمجئ. وقد كان بوسعك أن تعتذرى. رمقتنى فى فضول غريب، شدت يدى وتقدمت نحو التمثال الضخم الذى يتصدر البهو. كان ضخما ومسيطرا على المكان. تحسست صلادة الحجر وتأملت نظرته الواثقة ونظرت إلى اتجاهها. كانت تفيض بالحكمة وتشعرنى بضآلتى.. وحابى يمرق بين الحقول وأنا أغطس فى مياهه لأمسك الأسماك الملونة وأقدمها لها. تفتح سلتها وتبتسم لى ابتسامة

مشجعة. ينسدل شعرها على كتفيها وينساب عطرها، صفاء!

تقدمتنى وجنحت إلى اليسار. كان التابوت الصخرى الثقيل يشعرنى بالموت لا بالخلود، توترت كل خلاياى ويدى تمتد لتتحسس النقش الغائر. لا خلاص من ذلك الخاطر الذى سيطر على؛ ثبتت تلك اللحظة وانفلتت صرخة وتقاطر التعب من بين أصابعى.

جلسنا على مقعد جلدى له مسند عريض، عبثت بإصبعيها فى سلسلة مفاتيح، والكلام فى الصدر. قالت أنها بكت عندما وصلتها رسالتى وأنها شعرت بالحب الجارف يحتويها وهى لا تعرف كيف تبدأ. لقد اخترتها ولم استشرها فى الأمر.

أحبها مدرسها الجامعى. أوقف السيارة وأوصلها إلى خالتها فى الدقى. وقبل أن يفتح لها باب السيارة ضغط على يدها، فشعرت أنه يريد أن يقبلها.

أما الشاعر الحداثى الذى عرضت عليه تجاربها الشعرية الأولى فقد اختطف قلبها لأيام وصعقتها صراحته. كان قويا ومهيبا وواضحا. قالت لا. فمد يده بالحساب للجرسون وتركها تتخبط فى خجلها ومضى.

ذهبت إليه فى الجريدة، وسألته أن يتركها تلتقط

أنفاسها قبل أن تدخل فى التجربة. عرّفها بزوجته اليونانية، وتأملت شعرها الأصفر الجميل، ووداعة العينين. قالت له قبل أن يجلسا فى الهيلتون، أريد أن أفهم الدنيا. ضحك بعفوية. نزعت البنس ووضعتها على المائدة. بجوار علبة سجائره والولاعة وديوان محمود درويش. تقطر التعب وصعبت عليه، أوشك أن يدخلها عالمه، خاف عليها. لم يحدثها عن الفوضى المرعبة داخل الإطار المتماسك. وعدها فقط أن يمنحها مفاتيح الغَرف، وعليها أن تجرب كيف يمكنها أن تفتح كل غرفة على حدة؟ كانت وجنتاها ساخنتين متوردتين وهى تحكى. كنت أتابعها فى صمت. لم تقل أنها رفضت قبلته. هل هربت منه وهو يحاول أن يطوقها بساعديه ويمنحها حق التعرف على مدخل جديد للجسد؟

سألتنى بغتة، لماذا فشلت فى زواجك؟

كانت تنتظر إجابة والأقدام تطأ بلاطات المتحف. سألتها عن أيادى آتون المقدسة. لم أشعر معها بالدفء. قالت صفاء أنها تشعر بنفس الشئ وأنا فى المأزق ذاته. قد أتقدمها درجات لأن الطفلين يحملان أسمى وهى لم تنجب أطفالا بعد. هى تحبهم. تشترى لهم الحلوى واللعب ولا تريد أن تتزوج فى المستقبل لأنها رأت

الرجال جميعا ينصرفون عن زوجاتهم بلا سبب وهى ترى أن الشـمس لا ترحم النسـاء، ولا الزهور التى تقدمها الأيدى الممدودة لها رائحة مقبولة.

لم تسالنى عن عرجى. ولا الوشم الذى يقبض قلبى وأخفيه بين شعيرات صدغى النابتة. هل أخبرها عن عمال الورديات الليلية الذين يعودون إلى بيوتهم مع نسمات الفجر الأولى؟ وعن أبى الذى انبثق الدم من فمه فى السادسة صباحا وهو يحمل أرغفة طازجة تفوح برائحة لن أنساها

حين مددوه يا صفاء على سريره النحاسى، أغلقت أمى شباك الحجرة، ورشت ماء الورد حول جثته. صعد الصغار حوله يتخبطون فى البكاء ويطلبون قروشهم.

كان القرش من النحاس الأصفر المضروب بصورة الملك فاروق بطربوشه المائل وابتسامته الملكية الساخرة. وحين أبعدوهم فى غلظة بكوا جميعا فى حضرة الموت الذى لم يفهموه، واتى المغسل، وانهمك فى دعك اليدين والساقين والرأس بصابونة وماء وقطعة من اللوف جديدة كان أبى قد اشترها قبل عودته الأخيرة وكأنه كان يشعر بذلك الطائر المحلق الذى سيرف فى الغد فوق رأسه.

هل أتت أمى بالأوانى الخزفية ووضعت الحنطة وحبوب الأرز أم أنها انشغلت فى البكاء، والتعديد الذى له لون النيلة؟

أخذت صفاء خوفها من ابتسامة لا معنى لها. قالت أن الموت ينحسر عن حياة، وأن فى الفقد معاناة، والألم يجعل الروح خفيفة. قالت أن عمتها حين حضرها الموت قامت لتصلى، وبعد أن فرغت من ذلك جلست على حافة الفراش، ولم تكن مريضة لكنها أدركت الأمرحين شعرت بروحها خفيفة. قالت لهم أن ينزعوا الشعرة من العجين. ابتسمت وتهيأت له. ربطت رأسها بمنديل أسود مطرز ، ثم ما لبثت أن فكته وقالت أن هذا أيسر. رأتهم على صورهم. أياديهم ممتدة، واقفين فى المداخل، والمقابض تتحرك. قالت: قد أعددت الزاد. فهيا. واستلقت فى فراشها، وغطت جسدها. وقبل أن تغمض العينين. أزاحت بيدها علب الأدوية المصفوفة فوقعت على الأرض محدثة جلبة. ثم حين ساد الصمت، أشارت بيدها أن يخرجوا ليسير الأمر سيرته على مهل. وحين رأت انفراجة الضلفتين قامت بنفسها لتحكم الغلق ثم عادت لكى تتمدد من جديد. وسبحت فى الفضاء اللانهائى دون صوت. ولم يصرخ أحد. لقد

اعتراهم الذهول. حين سارت الجنازة اخفوا الأمر كله. تلك التفصيلات اغلقوا عليها صدورهم وبدوا واجمين.

امسكت بيديها الباردتين، كان لها سحر لا يقاوم. كنت اشعر بأننى احبها، وكان مبضعها شق قلبى وغرس فيه صورتها. كان حديثها عن الموت لا يخيفنى ولاحظت أن رأسى قد مالت نحوها، وارتكنت على كتفيها ولم تبد مقاومة بل راحت تسوى الشعيرات النافرة بيدها وهى تكمل حكايتها عن الموت. أصابعها طويلة ومسحوبة. كانت عمتى تلك تحبنى. قبل أن تذهب قالت لى: لقد كنت غبية. لم اتزوج الا مرة واحدة. تشاجرت مع زوجى وخرجت إلى بيت عائلتى غاضبة. حين تأخر شعرت بالأسى. انتظرت أن يأتى. وفى اليوم الذى كان عليه أن يعتذر لى عن صفعته المؤلمة. عبر الشارع مع صديقيه دون أن ينظر فى نهر الشارع، وأتت سيارة مسرعة فطوته تحت عجلاتها. لم يمت فى الحال. نقلوه إلى المستشفى فلفظ هناك أنفاسه.

كل ما تبقى منه خاتمه الذهبى، وحافظة أوراقه، ومشط أسود، وساعة بلا عقارب وبقيت أتحسس مكان الصفعة ودون أن أجرؤ على التفكير فى الزواج بعده!

عبرت مجموعات من السياح، وتاملت فتاة عارية الظهر. بدت جميلة من بعيد وحين اقتربت وتاملت النمش الخفيف على وجهها، ونظرتها القلقة الحائرة المتطلعة ادركت أن صفاء أجمل وارق.

همست لها: كيف تبدين فى معطفك الأبيض يا صفاء؟

هزت رأسها فى مرح: لن تجد هناك اختلافا يذكر.

تلك الأحلام التى وددت أن أقصها عليها بدت فى اللحظة غير مناسبة. أشعر أن حقول الشطة التى تموج بالشر تحيط بى. إلام تدفعنا أقدامنا وكل الطرق محاصرة؟

سألتها: عمتك تلك ما اسمها؟

قالت وهى تحكم الإيشارب الأزرق حول عنقها: هل هذا يهمك؟

راوغت فى إجابتى وضبطت نفسى أبحث عن التفاصيل. وتاملت حين أصطدمت عينى بمنظر الجسد الهابط من الاتوبيس المندفع فى سيره، والصدمة المروعة، ثم فرقعة العلبة العظمية لا أنساها. عدت إلى منزلى مهموما. كان ميدان التحرير لا يعنى النصب الخالى، ولا قصيدة الكعكة الحجرية، ولكن تلك

الطقطقة المؤلمة التى لم تستمر إلا لجزء ضئيل من الثانية. جرى الدم الأحمر فى مسارب متشابكة. وكم كان غريبا أن يبدو الوجه راضيا متسامحا.

دفق الدم مع الأسفلت اللزج، وأوراق «الأهرام» تتشرب فى تؤدة السائل الساخن. انتفضت هلعا.

أرواح تنتهك فى الليل والنهار. سألت أمى عن حكمة ذلك فلم تبح. حابى لا يهتم وآتون الحنون يغسل بالشمس أيامنا، كانت جدتى قاسية القلب. لطمت أمى على وجهها عندما رفضت أن تضع الكحل حول عينيها قبل مرور الأربعين. جدتى قوية وعنيفة. ترملت منذ زمن بعيد وهى تعرف أن الفراش الذى لازوج فيه بارد وموحش. قالت لأمى: الحى أبقى من الميت.

وكانت حجرة المومياوات فى الطابق العلوى، وأردت أن أدخل مع الأفواج الداخلة لكنها أشارت لى أن أبقى قليلا لأن دوارا خفيفا يعصف براسها. سألت فتى يرتدى بنطلون جينز وقميص كاروهات عن برشام للصداع فاعتذر. سألت سائحة فلوحت بيدها وهى تتمتم بالانجليزية ضاحكة: لا. لا.

أخذت راسها فى صدرى، أربت عليه، أجفلت فى البداية ثم سكنت وشعرت برائحة عطرها. هل أحرقت

إيزيس خشب الصندل بعد أن لملمت الأشلاء؟ وهل مسحت بالطيب على الجسد المسجى فى تابوته الخشبى؟

كان فى قلبى لوعة، سألتنى بلا مواربة، ما سبب عرجك؟

وطأة الألم ومراوغة الحقيقة التى تضغط فوق أنفاسى. أوقن أن الشظية التى طارت لتسكن الساق لم تكن تقصدنى بذاتى. موقع الـ م. د حين احتل باطن التبة وجهز مدافعه فى اتجاه الشرق أطلق أول دفعة من النيران، فحلقت أسراب الطيران المعادية وقصفت الموقع فى طلعات متتابعة. غصنا فى حفرنا البرميلية، وحين انفجر صندوق الذخيرة شعرت بألم هائل للحظة. ثم لكأن الشظية شطرتنى نصفين، كنت أفكر بعقلى فى هدوء مريب عن لحظة انتهاء الحرب. كيف تبدو بيوت القبوطى والبنت «جيرمين» النصرانية التى تجلس على مقدمة الفلوكة تهز قدميها الحافيتين وهى تغنى بصوتها الرقيق «يا ودع.. يا ودع. اللى باحبه واد جدع؛ »

أشير لها بيدى لصدرى أى أنها تقصدنى، فتطوح رأسها ضاحكة، بلا اهتمام وتغيظنى بلا مبالاتها. أما ساقى فقد كان ألمها لا يوصف.

قالت تسالنى: ما بك؟ قلت وكان شفرة بيننا نفضها فى الحال: حرب الاستنزاف. والاستحكامات على طول الجبهة. وأمى تعد لى حقيبة السفر وتنصحنى أن احافظ على نفسى وأن أبعد عن الضرب. فكيف لى بذلك والمواسير فى الشرق كلها مصوبة ضدى بإحكام. ومن لم يمت بالقصف مات بغيره.

هل احكى لك يا صفاء عن هارون. حين انتهى القصف المركز على مواقعنا سعى بين الحفر والمرابض ليحصل على قايش وسط لأنه نسى قايشه فى ملجأ المؤخرة. وحين اعتذر الصعايدة الذين يعتز بهم ولا يرضى بغير صحبتهم بديلا. عاد منكس الراس متوعدا إياهم. وحين هم بدخول ملجاه تعثر قدمه فى طلقة «مكذبة» سرعان ما انفجرت فى التو حين تقلقلت من مكانها فمزقت جسده تمزيقا. واتى الرقيب هنداوى ورحنا نجمع اشلاءه باصابعنا. نحفن الرمل ونغربله لنخرج مزقا من القماش التيلى الكاكى، وقطع لحم دافئة. وكانت كلماته مازالت ترن فى آذاننا، أعمدة التصويب وشباك التمويه لم تنفعه. اضغط بإصبعك على الزناد واجعل «سن نملة الدبانة» أسفل منتصف الهدف.

اقبض بيدى على رمل ساخن وغيظ فى صدرى، وكأن آلة حادة تغوص فى صدرى قالت وهى تخفف عنى: أبى حارب فى ٥٦؛

هزت رأسها مؤكدة، وفوق ظهره حمل صناديق ذخيرة. الا تصدق؟

أصدق كل شئ. وكل الأدلة تفضى إلى أمر واحد. أن الماضى الذى عشناه كان فظا وقاسيا وأن كل زهور الدنيا تتفتح مع ابتسامتك. لماذا ترفضين أن أقبلك يا صفاء، وفى عينيك شلال من نور لا يمكن مقاومته؟

قالت وهى تلومنى: كل أحاديثك عن الموت والحرب. هل جئنا إلى المتحف لنزيد أنفسنا كآبة.

كانت صفوف المحاربين الأقزام تحمل رماحا أمامنا، صرخت فى فرح وهى تتأمل نظامهم الصارم، يذكروننى بعساكر الأمن المركزى.

ضحكت ونحن نعبر القاعة إلى قاعة أخرى ونطل من أعلى المدخل حيث الوفود تتدافع نحو الردهة فى جماعات. أما الفتيان فهم يقبضون بيد حانيه على اكف البنات المصريات الخجلات. حب يتفتح كبرعم فى الضوء. وخطوات مضطربة، والقميص مفتوح من الصدر لتبرز شعيرات تفصح عن فتوة برغم البرد الذى

استشعره. شعرت معك بالكهولة. قلت لها وانا أتحسس ملاسة الآنية المرمرية، هل هناك أمل فى أن يجمعنا مشروع واحد؟

هزت رأسها رافضة الفكرة دون أن تنبس بكلمة. تصحبنى فى مساحات فراغ معتمة قلت لألفت قبل أن تاخذ الطفلين وتسافر إلى المنشية، كل شئ يمكن إصلاحه. لا تتسرعى فى هدم بيتنا الذى بنيناه بالدم والعرق.

نظرت نحوى فى غضب، لا تصلح إلا للشعارات. اتركنى اشعر بالدنيا. هل تشعر بالدنيا الآن وهى تعيش مع تاجر سمك فى الأنفوشى. هى الآن مشغولة بإحصاء نقوده الزفرة ورصها كومات كومات. إرتاحت الآن من الفقر والسياسة والكلام المعسول الذى لا ينفع.

قالت لابنها ياسر أن البيت فيه بانيو تملأه بماء الكولونيا ويمكنه أن يزورها ليستحم. ورفض الصغير، أما صادق الأصغر سنا فقد ذهب معها وحين تركته يرفص بأقدامه فى الماء وعادت بالمنشفة. وجدته يصارع الغرق. لم يذهب بعدها. عرفت الحكاية منها فى زيارتى الأخيرة. لم أحرص على رؤيتها. وكان بمقدورى أن افعل. تركت لها رسالة مع جد الطفلين. أننى لن

أتمكن من سداد نفقة الشهر القادم. اعرف أنها لن تهتم. والجد مشغول بقراءة صفحة الوفيات. أما الولدان فهما معلقان فى الفراغ. على حافة المرارة والحنضل. هؤلاء هم أبناء المقاتلين ومطاردى الغزاة. لقد تم السقوط المروع دون أن نجرؤ على إطلاق رصاصة واحدة.

كانت تنصت والدموع تنساب من عينيها. طوقتنى للحظة ثم قبلتنى فى ارتباك بينما أتحسس فجيعتى. وأطفالى بدوا مشردين حفاة بلا ملابس تستر عريهم. فضحتهم أيام لا ترحم، فليتهم يعبرون الجسر الحجرى إلى مستقبل يخصهم دون أن ينظرو إلى هزيمتنا المبكرة.

قالت صفاء وهى تدارى ارتعاشة. شفتيها، لماذا لم تتغلبا على خلافاتكما؟ غصصت بدموعى، وسرى فى جسدى حزن شفيف، تخاصمت الأرواح فابتعدت الأجساد. استوضحتنى. فحدثتها عن دم تخثر. عن الفقر الذى غشى أيامى. حين ذهب جسد الأب إلى القرافة، إتشحت النسوة بالسواد، وضعت أيدينا «الخوص» على الشواهد. عدنا إلى المنزل بلاطعام.
الجدران لا تلقمنا سوى الصمت. انطلقنا نسمع

الشيخ محمد رفعت ونعمل فى الورش حتى الساعات الأولى من الصباح. قبل أن يرفع المؤذن صوته بندائه الشهير «إرفع.. إرفع».. وطلقات المدفع وفوانيس من ورق ملون. تذهب أمى إلى القرافة ثم تعود لتندب حظها. والحارة رخامية القلب. قالت سوسن: إطلع. وكانت أطول منى. قلت: إنزلى.

نزلت سوسن ولعبنا سويا وتابدت اللحظة التى كشفت لى فيها عن سرها. لم أكن أعرف أن للبنات أسرارا. قدمت لى اللوز والبندق وعين الجمل. ضربتها فسال الدم على فمها. قال لى أبوها وهو يصعد ورائى السلم لاهثا: يا قليل الأدب. كيف تضرب بنت هى جارتك؟

نزلت أمى درجتين وأكملت الإهانات، وضربتنى بعصا مدببة إرضاء له. قال وهو يهش بيده ذباب كثير أتى معه: أطفال.. أطفال.

قالت صفاء وهى تفك قيودى و تشعرنى بحريتى: كلنا لنا تلك الطفولة المشردة. كلنا تعثرنا فى أكاذيب صغيرة.

بدت دقيقة وجميلة. كنت أريد أن أبيع كل الماضى الذى مررت به، أدفنه فى عمق صحراء بعيدة كنفايات

ذرية ضارة. لكنها خففت عنى. اشعرتنى بأن ذلك النقص أمر طبيعى؛ هى طبيعة الدنيا.

وقامت أمى لتتزوج ثانية من محفوظ تاجر البن؛ اقنعتها جدتى بأن تضع الكحل وكان عقيما لا ينجب فراح يضربنا بالحزام، ونحن نصرخ ونختفى تحت الأسرة، وأمى تقول له: اجعل فى قلبك رحمة. تشده من وسطه وهو يندفع نحونا مزمجرا.

ولا يجعل محفوظ فى قلبه. ذرة من رحمة. يدوسنا بقدمين غليظتين، والكحل أسود، هو الأزرق يا أمى. أمى التى لم تكن تضمنا إلى صدرها، صارت تفعل الآن بعد أن يخرج، وتقول وهو يعبر عتبة الباب: ابتر... أبتر.

والكحل أسود، والدم الذى تجمع تحت جلودنا ازرق، وهى تتحسسه. تقول: إذهبوا إلى الورش. إن للورش قلوبا ترحم، أما هذا فلا قلب له.

كانت تطبب روحى المجهدة بتربيته خفيفة، فلا تنتقص احزانى. هل تملك البلسم الشافى؟ سألتها فجاة: لماذا أخترت الطب؛

يبدو أنها بوغتت بالسؤال، تحسست شعرها الناعم المعقوص. وفاضت بابتسامة ملائكية: أردت أن اشفى البشر من آلامهم.

سكتت هنية قبل أن تضيف، ثم اننى شاطرة حصلت على مجموع كبير.

اردت أن أخرج من تلك الحالة الجهمة، اعترفى أنك تحلمين بالثراء والسطوة. بريق عينيها أفصح عن عداء خفيف لم تحاول كبته، ليس الأمر كذلك.

وكنا قد ركبنا قطار السادسة، حين راح كبرص فضى يتسلل بجسده المعدنى الحقول تغطيه غلالة رقيقة من ضباب معتم، وانفاس الصباح الطازجة تواجهنا فرحة خجولة. أشار صديقى بيده إلى أعجاز نخل خاوية، وقطعان ماشية تزحف فى تثاقل وحين بانت مداخن «المحلة الكبرى» هبطنا القطار. تحسست خطابه فى جيبى.. اندفعنا نسأل عن ذلك الفتى الذى أحببناه وهو يروى حكاياته ويترنم بأغنية المشرحة الخالية، قابلناه فى منزله الواطئ بوجه صبوح. احتضننا واحدا واحدا. كنا نحتفى به وهو يدارى خجله، وعلى مشارف حقول زاهية جلسنا فى آخر غرفة بالمنزل. كان صاحبنا يحلم ويحلم. يضحك كثيرا لكل نكتة جديدة بينما صاحب الأغنية تعتوره أحزان سحابات رمادية تمر فى الفضاء البعيد. حدثنا عن حالات الإستقبال. عن المصاب الذى فتح عينه ورائحة البنج تطوح بتماسكه ليسأل عن

رجولته، هل ذهبت أم أنها باقية؟ كنا نثرثر ونضحك كثيرا، ونقرأ الأشعار على الطلاء الأبيض للحجرة وهو - صاحب الغرفة - يربت على أكتافنا ويقدم لنا الحلوى كأننا أطفال. لماذا ذكرتني صفاء بتلك الأيام الجميلة التي لن تعود. لقد أتى الرجل الجهم بعصاه الغليظة من خشب الجميز فهش أحلامنا وأدار وجوهنا إلى الحائط ودفعنا دفعا نحو القفز من النافذة. من منا لم يهرب من ذاته وأوراقه وأصحابه؟

لماذا اخترت الطب يا صفاء. وأرواحنا تحمل جروحنا لا تندمل، وكل أجسادنا تحمل أوجاعا توحدت مع الزمن الصعب الخليع.

قالت وهي تهزني:

أفق. أجئت بي هنا لتسرح.

كانت ملتصقة بي كقطة خائفة من البرد والتجربة والمستقبل.

وكانت أمامها صفحات كثيرة لم تسود.

كل الطرق أمامها صالحة للسير.

أما أوراقي فقد سودت جميعها ومايفلح معها أن أقطعها لأعيد الكتابة من جديد.

قامت تسوي جيبتها:

هيا بنا إلى حجرة المومياتء

صعدنا إلى هناك. كانت العتمة تلف المكان. وشرائط الكتان تلف الأجساد الفرعونية. ورائحة الطيب والمسك والصندل تعبق بالمكان. هتفت بي: انظر.

مدت يدها لتشير بأصبعها السبابة إلى طفل ملكى صغير ملفوف فى أشرطته. طاردتنى الرهبة وشعرت بالخشوع، تلك النقوش الغائرة فى الحجر لها رصانة الخلود. أى منطق يجعلنا نحدق فى تلك الأجساد ونحن الموتى. سائل عرقى ينحدر فوق جسدى: أهو العرق أم الدم؟

حدثت نفسى كثيرا ووجه «هارون» لايفارقنى عن معنى ذلك الدم العقيق الذى تلمع به الحياه، وحين ينسرب فى التراب تتبدد حياةء

وحين عاد أبى من الوردية ليتمدد، ويذهبوا به، سألت نفسى فى حسرة عمن يؤنس وحدته. على حافة القبر وقف الشيخ يلقنه ويطلب له الثبات. كان النهار رائقا حين عدت أتخبطت بين أقدام العابرين وبدت دموعهم بلا معنى.

قال صديقى الطبيب وهو يقرأ قصته الأخيرة: إلق بعصاك وارحل لن تجدى معهم أى مقاومة.

وقد تسللوا فى الليل تحت الجلد، وفشلت كل الجهود فى طردهم أو حصارهم. ووقف «أحمس» يصيح بالجنود أن يرصوا الصفوف، ويدعموا القلب بعد أن هجموا على الميمنة وفتكوا بالمدافعين.

قالت صفاء إنها أحبت فى صغرها ابن الجيران وإنها كانت تقف فى البلكونة كل صباح لتهز رأسها هزة خفيفة ثم تنزل مدرستها ونشوى غريبة تطوقها.

قالت إن أباها يحبها ويحب أختها نرجس، لكن محمدا الذى هجر المدارس وعمل فى محل نجارة هو الذى يمكنه أن يرفع صوته أعلي، وبمقدوره أن يدخن سيجارة فى وجود والده. وأنها تكره الدخان ولاتطيق أنفاس المدخنين.

على الجدار كانت هناك لافتات صغيرة تحذر من التدخين بمختلف اللغات ولم أكن أدخن. وكانت غلالة رقيقة من حزن تحيط بنا والتوابيت لها رهبة مسموعة. فى حضرة الموت بدونا أضال قامة، وشعرنا بأن الحقيقة تحاصرنا بسطوعها المذهل.

قلت لها وهى تستطعم الحزن بلسانها، كانت تحركه بعفوية ورقة هل يمكنك أن تصمدى طويلا فى وجه ذلك الريح الدامي؟.

الطحالب خضراء تسبح فوق وجه الماء، ورائحة العطن تفوح. أما حلية وبريق الذهب فى القاعة فقد دل دلالة على انه كان يسرق عرق الكادحين، يخفى الحنطة، وأسراب الوز الملكية، بينما هم فى مسغبة وجوع قاتل.

قفى أمام الباب لحظة ياصفاء. لاتنبهرى بالضوء وسيرقص الديك الفضى لكنه سيستسلم للسكين، وفى لحظة الذبح ستدركين كم كان المكان موحشا ورطبا؟ حدثنى فى حجرته عن حلم جميل يشرق وعن طرق تفضى إلى الشمس، وعن حدائق رمان وزهور لوتس، أما عن الحكايات التى تتحدث عن تحويل التراب إلى ذهب فهى أكذوبة. وأهدى لى كتابا نقش صفحته الأولى باهدائه المنمق وبعد سنوات طويلة رأيت نظرته الوديعة لم تتغير. زرته فى بيته الفقير على أطراف المدينة. كانت الكتب مكدسة ولديه أطفال لهم صخب محبب، جلسنا سويا نأكل الخبز والبيض والجبنة القريش وثمرات الخيار، وضحكته لاتفارقه. أما أحلامه القديمة فقد تآكلت. وحين قدمت زوجته أكواب الشاى أدركت ياصفاء أننا خسرنا كل شئ فقدنا قدرتنا على تمييز طعم الملح من السكر .

أشارت بيدها إلى حورس وسألتنى هل تطهر جسد والدك بالنطرون؟

هل لفوه فى أشرطة الكتان المغموسة فى زيت الزيتون المقدس؟

رفعت أمى السكين فى وجه تاجر البن. وأعلنت تمردها فهى لم تحبل وقد داس فى فراره حبات الزيتون الأسود، واصطفق الباب خلفه. أما هى فقد بدت منتصرة. كان ظلاما وانقشع وعدنا للفقر، ورفرف الصفاء فوق المكان ثانية ولم أعد أسمع صوت طقطقة الجمجمة فى ميدان التحرير.

كانت صفاء تسير معي، وتراتيل تتناهى إلى أسماعنا، ونور يترقرق المكان. ونحن نصعد ونصعد، وغابت التفاصيل من حولنا. سألتنى فى صوت خفيض: هل نمتلك من الدنيا شيئا سوى تلك اللحظات، ودفء المشاعر؟

أشرت لها أن تتأمل القرابين المقدسة: أسراب الأوز، وقطعان الماعز، وتلال الحنطة!

ضحكت وقالت وهى تضغط على يدى: جرار الجعة أشهى !

ولقد صعقتنا «إيزيس» بنظرته العاتبة واخفت فى

صدرها زهرة القرنفل البيضاء وبان نهداها فجأة وهى تنحنى لتلملم دبابيسها التى وقعت منها. شددت يدها، جزعت. سألتنى: هل خرجنا من دائرة نفوذه؟

وقالت ألفت تحذرنى: زوجى له نفوذه. إبتعد عن طريقى. لست مستعدة لتكرار الفشل. أما والدها فقد دفن وجهه كعادته فى صفحة الوفيات وكان صوته يرتعد: سنرسل لك الأولاد لتتكفل بهم. ودعها لنصيبها يا رجل.

وكانت البركة خلفه راكدة المياة، رأيتها تخلع ملابسها وتنزل فى الماء الآسن والطحالب تنفذ إلى خلاياها، ورجس من عمل الشيطان حو لها.

إنه امتحان لقدرتى على الصمود فى وجه تلك المؤامرات. صرخت وارتعشت مفاصلى ولقد تاقت روحى للخلاص من تلك الازمة.

صرخت وجاءت جرمين النصرانية فضمتنى إلى صدرها وعدت صبيا، أما هى فقد كان رأسها محاطا بالنور، ونظرتها تفصح عن قدرتها على شفائى.

ارتجف النور ودخلت أحقابا وتواريخ قديمة. نفضت عن ذاتى شمس قديمة لم تعد قادرة على منح الدفء.

سألنى هارون أن أطهر حفرة المدفع، وأن أضبط

عمود التصويب، واكثف تدريبات الهجوم الليلى. أصر أن يخلع وسام الواجب كى يضعه على صدرى، وغامت الدنيا لثوان ثم عادت بصيرتى نافذة. ورأيت القافلة على البعد عائدة محملة بالحرير الهندى والأساور الملونة والطيب، والعاج الغالى الثمن. ورأيت أن من واجبى أن أحذر «صفاء» من الخديعة التى تنتظرها، كانت الصفقة خاسرة ولم أرفل فى النعيم كما تصورت.

امتدت يدها تتحسس المسند العاجى المطعم بخشب الأبنوس. سألتنى والحيرة تملأ نفسها: سئمت العالم الذى يبدو بلا معنى. لا القصائد أنقذتنى من تخبطى، ولا الحب بقادر على شفاء روحى.

كنت أصغى واتخبط بدورى فى همـوم اللحظة وجبروتها. أشعل نارا وأحرك يدى، لكن الجمرات لا تمنح دفئا.

قالت إن نرجس تحلم بالزواج والأولاد والبيت. وأنها لا تفكر فى الأخطاء التى تملأ الدنيا من حولها، لذلك تضع رأسها على الوسادة لتغرق فى النوم أما هى فتظل مؤرقة. تقوم فى الليل لتسأل الكتب والظلام. وتحدق فى الأشجار الساكنة لتمنحها طمأنينة، لكنها تتعذب.

أشارت بيدها أن نخرج، ولقد واجهنا الإله «أنوبيس»

وحدق فى وجوهنا واقتربت منا السحلية المقدسة، حركت ذنبها وابتعدت. فى الساحة الواسعة ابتلعنا الصخب ونداءات باعة الصحف، والزحام المروع، والأقدام اللاهثة. نظرت إلى مكان الحادث. تغيرت الواجهات، وأصفرت الخضرة، أما صوت طقطقة الجمجمة فهو الشئ الوحيد الذى بقى.

عبرنا الطريق جريا، وكان آتون مختبئاً خلف السحب الرمادية المتكاسلة. أردت أن أسرى عنها. أخرجت من بين أوراقى صورة قديمة أخفيتها بين كفى، لمن هذه الصورة؟ إنها لامرأة أحبها!

كانت تعانى من الزحام والشمس تظهر ثم تحتجب. والصفارات، وأبواق السيارات، ونحن نقطتان فى بحر متلاطم، أنت رائق!

أسرعت بتقبيل الصورة ثم أخفيتها. مدت يدها بفضول، دعنى أراها!

تأملت صورة أمى و لمحت التشابه، ولقد انشب أسنانه فى كتفى ونغص علئ عيشى، ولكننى واجهته بعبارة واحدة، أننا نكرهك، أنت غريب هنا.

أزاح المقاعد وضرب بقبضته المنضدة، جلس يرتعد ورائحة أنفاس الحشيش تصلنى. بعد أن جفف وجهه

وظلت عروقه نافرة قال لها: لابد أن أذهب واترككم. لا أحد هنا يريدنى.

ظلت صامتة. ونبؤتى تتحقق الآن، لقد خسر المعركة بعد أن سقطنا صرعى. قالت لى: لم أعد أزور خالتى فى الدقى. سيكون أمرا طيبا أن افعل ذلك. بدت مبتهجة، وغادرها فزعها. سألتنى: نرجس أجمل منى. أليس كذلك؟

كانت نرجس جميلة لكن صفاء أكثر سحرا، وأبهى طلعة. أرتنى أوراقها، وأدركت أن الطب حرك الأسرار، فعصفت الرياح وتصاعدت الأسئلة. قلت لها: النهر والشلال. أيهما يختار الإنسان؟

أشارت إلى صدرها ضاحكة: الشلال طبعا!

ولقد تراجعت كل أفكارى السوداوية وبدا الكون بهيجا وهى معى، وشعرت أن أياما رائعة سأمتلكها بقبضتى. كانت تتحرك كفراشة، وكنت اتبعها فى فرحة غامرة نسيت معها كل عذاباتى. معى الآن أزهارها وأسرارها ومنديلها وقصائدها، ومعى حكاياتها عن رجال ذهبوا وتركوا ندوبهم وأسرارهم فى ذاكرتها. أصعد إلى ذرى من متع خالصة، تسألنى: هل تحبنى فعلا؟

اتنهد وافكر ليكون جوابى مقنعا، أنت الفرصة الأخيرة.

أسألها بدورى: ألن تندمى؟

تتأمل المارة. السيارات التى تمرق فى فظاظة. تعود لتملأ عينيها بصورتى: بل سأندم فى الحالتين. أننى أواجه نفسى وسأكون غليظة القلب مع ذاتى.

كانت تفكر بصوت عال. والقاهرة تحاصرها بضجيج. وعوادم السيارات. وسحابات متخاذلة أشعر أنها تمنح نفسها فرصة أخيرة كى تصدر حكمها.

ندخل المطعم الشرقى ونجلس على مائدة عريضة وأصوات العصافير المعلقة فى اقفاصها تصلنا والضوء المعمى يسود المكان: أنت الآن معى!

تتشابك نظراتها مع نظراتى. صراع خفى. ورغبة متأججة. وهى حائرة. استسلم لحلمى الخارق فى أن أجعلها حلمى المستحيل. تصدمنى بكلماتها المجنونة. أضع زهورها على المائدة الخشبية.

ورائحة زفارة السمك تنفذ إلى أنفى. وكأن ألفت تطاردنى فى كل مكان. أسألها: هل نتناول فولا وطعمية؟

تهز رأسها موافقة. والأسماك الملونة فى الخلفية

تتحرك فى انسياب، والزعانف ملونة بأحمر وبأصفر وأزرق. أحتوى يديها فى عشق حقيقى. أبدأ هجومى الأخير، أقصف مواقعها واسكت مصادر نيرانها. بيدى لا بيدها، أنهى كل شئ. سألتنى ورائحة اللبان والمسك تطوقها، والمصابيح تنعكس على صفحة وجهها، أتريد أن يكون الاختيار لك. أتريد ألا تبدو مهزوما؟

كانت حياتى فعلا هزائم متوالية، ولم يكن مقتل هارون هو الشئ الوحيد الذى أدركت معه أننى تعرضت للانحدار. موت أبى وزواج أمى، وغياب سوسن. وسفر جرمين النصرانية. وطلاق ألفت، وذهابها إلى الأنفوشى. ثم الباب الذى أنغلق فجأة ولما فتحناه بالدم واجهنا حقيقة الخواء الذى كنا نعيش فيه. كانت أقدامهم تطأ الأمكنة فى زهو كاذب. وكنا نتقوقع داخل المقاهى، نشرب الشاى صامتين. كانوا أعلى صوتا وكنا نتداخل ونشعر كل لحظة بأننا قد فقدنا آخر أوراقنا وأحرقنا كل زوارقنا.

قلت، بل الاختيار لك. ماذا تريدين؟

مرت فترة قصيرة من الصمت واختلست النظر إلى وجهها الذى بان مربدا، راحت تفك بعض خرزات بأصابعها من كيس نقودها، هل يمكن أن نظل أصدقاء؟

ضحكت ضحكة مروعة، حتى أن من فى المطعم التفت الىّ فى فضول: تذكرنى عبارتك بالأفلام السينمائية. ماذا تقولين؟

انحدرت دمعة. فوجئت بها. دعة وجهها أسرتنى. كنت أحبها، ولا أريد لها أن ترث كل متاعبى. بدت مرهقة، وجهها شاحب بعض الشئ لكنها جميلة.

وددت أن أحتضنها، أن أقدم على فعلتى المجنونة ثم أهرب من وجهها إلى الأبد. روح قلقة وكلمات متخبطة، الأطباق أمامنا لم تمس: هل فى كلامى شئ يَضحك؟

كانت ذبذبة كلماتها تعلن توتر خفى أدركته. خمنت أنها ستقوم غاضبة، تأهبت للموقف. لن ألحقها سأتركها تمضى لتشعر بالانتصار. سيمكنها أن تثبت لذاتها أنها حسمت الموقف لصالحها، وسأبدو أمام ذاتى فارس شهيد ضحى بنفسه من أجل معان سامية. ضحكتَ ضحكة باهتة هذه المرة. قلت لها والألم يعصر قلبى: صفاء. أغلقى الباب تماما. إن الدم ينسرب فى الرمال عقيقا. ويجب الا نبكى لذلك.

سألتنى فى رقة شعرت أنها ستوحشنى: هل ينتهى الأمر عند هذا الحد؟

هزرت رأسى بالموافقة. بدت تحسب خسائرها. لم

يكن يؤبه لهـا، وكنت على وشك الانفـجـار فى البكاء لكننى تماسكت.

جمعتَ أشياءها، الأزهار، ومنديلها المطرز، القصائد، بعض بنس الشعر. قدمتها إلى يديها الممدودتين نحوى. كنت أريد أن أقبلها، وكانت تريد وخجلى.

قـمنا تاركين الأطباق كمـا هى. وعلى الطوار المقـابل للمطعم، وبعد أن دفعت حساب طعام لم ناكله. سحبت يدهـا. هزت رأسـهـا ممتنة. وجـسـدهـا يرتجف، وأنا أفيض بالمرارة. همست فى دفء وبلوعة: إلى اللقاء.

قلت لها: بل قولى الحقيقة: وداعا.

كنا نمر بلحظة رومانسية خائبة، وأشعر أننى أنتمى لعصر قد انقرض ودخل المتاحف. التفت، وقد تماسكت بعض الشئ: معك حق. وداعا.

ثم أنها مضت بخطوات واثقة فى الاتجاه المضاد دون أن تلتفت ولو لمرة واحدة.

فهرست



صدر للكاتب :

*** الشعر :**

* الخيول، مديرية الثقافة بدمياط، سبتمبر،١٩٨٢.
* ندهة من ريحة زمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠.
* ريحة الحنة، مديرية الثقافة بدمياط، ١٩٩٨ .
* نتهجى الوطن فى النور (الهيئة العامة لقصور الثقافة) إبريل ٢٠٠٠ .
* سجادة الروح (إقليم شرق الدلتا) مايو ٢٠٠٠.

*** الرواية :**

*رجال وشظايا، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠ .

*** دراسات ومراجعات :**

*الحكيم وحماره، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩ .

*** حوارات صحفية :**

* مواجهات، مديرية الثقافة بدمياط، مارس ٢٠٠٠ .